مقدمة في

أسباب آختلاف المسلمين وتفرقهم

تأليف

محمد العبدة

د. طارق عبد الحليم

www.tariqabdelhaleem.com

قال تعالى:

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ

(الأنعام- 153)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم) (رواه مسلم)

(اذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا ، بل الواقع أنه مامن بلاء كان فيما سبق إلا وهو موجود اليوم)

ولي الله الدهلوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ونصلي ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد.

فإن المتأمل في واقعنا الإسلامي المعاصر يجد نفسه – رغما عنه – نهبا لمشاعر عديدة تهديه الى البشاشة تارة ، وتدفعه الى الحزن والألم تارات .

فهنالك صحوة إسلامية لاشك فيها ، ليس هنالك أدل عليها من تسارع ضربات الطغيان للمسلمين في كل مكان وازديادها وكثافتها ... فانه كلما أزداد الفعل كلما أزداد ردّه بما يساويه ... هذا في عالم المادة أما في عالم العقيدة فانه كلما ازداد الفعل كلما تضاعف رده أضعافا كثيرة وفي عالم المادة أيضا قد يوقف رد الفعل ذلك الفعل ويمنعه اما في عالم العقيدة فان رد القعل لا يزيده الا قوة وصلابة وليس هذا من قبيل الانشاء والتبجيد والمزايدة بالألفاظ ... بل التاريخ شاهد على صحته ، ونظرة فيما قصه الله عز وجل علينا في كتابه العزيز من قصص دعوة الإسلام على مر تاريخ ابن آدم – متذ أنزل أبوهم آدم بالتوحيد حتى دعوة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم – نرى مصداق ما قررناه من أن الابتلات والمحن ليست الا بوتقة كريمة تصهر فيها ارادة المسلمين لتخرج منها أصلب عودا وأعمق تجربة مصداقا لقوله تعالى

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ (1)

وهذا ماغفل عنه الطغاة الذين يكيلون الضربات بقسوة وعنف، وهم لا يشعرون بأن الله سبحانه قد جعلهم فتنة للذين آمنوا يمحصهم بهم ، وليميز الخبيث من الطيّب ، وأن تلك الضربات ستعود عليهم وبالا يوم أن يورث الله سبحانه الأرض لعباده

المتقين كما وعدهم اذ قال : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ (2)

وهذه الصحوة الإسلامية ليست وليدة أيامنا الحاضرة هذه ، بل ان جذورها تمتد الى مابعد سقوط الخلافة العثمانية في نهاية الربع الأول للقرن الماضي ، حيث أحدثت الهزة التي أسقطت كرسي الخلافة ، صحوة في نفوس مجموعة الدعاة الأوائل حملوها لمن بعدهم جذوة متقدة في النفوس الحية التي تأبى الا أن تحيا حياة الإسلام ولاترضى بغيره بديلا.

الا ان الأحزان التي تحيط بواقع الحياة الإسلامية المعاصرة كثيرة أيضا. فانه لاتكاد تقرّ عينك بما تراه من اتساع الحركة الإسلامية ، وتكاثف الكم الإسلامي نسبيا حتى ترى من خلف تلك الظواهر ما يحزنك ، ويملأ نفسك أسى وحسرة فالإسلاميون مشتتون لايجمعهم فكر واحد ولا منهج موحد ، ولاينتظمهم صف معا لاختلاف أفكارهم ومناهجهم ، قد وقعوا في الفرق والاختلاف الذي نهى الله تعالى عنه وحذر عباده منه فقال :

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (3)

.وكان من نتيجة هذا الضعف وهذه الفرقة أن استهان بهم الطغاة ، ورماهم عدوهم عن قوس واحد اصابت منهم الصميم ، وراحت تقطف من خيرة شبابهم ماشاء لها كل بضع سنوات ، فما دفعهم ذلك الى مراجعة مناهجهم المتعددة المتفرقة والى

اعادة النظر في خطواتهم المضطربة المشتتة وصدق قول الله عز وجل : وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (4)

ولا نقول ذلك ليخبو الأمل في نفوس المحبين لدعوة الإسلام، العاملين عليها فاليأس من روح الله أول مدارج الكفر، ولكن أول خطوات الشفاء تشخيص المرض تشخيصا دقيقا، ومعرفة العلة معرفة تامة محيطة بكل جوانبها، ثم بناء العلاج على ذلك التشخيص والتحديد بما هو مناسب له ومؤثر فيه .

فما هي أسباب هذا الضعف وهذه الفرقة والتشتت ؟

(1) آل عمران- 173 (2) الصافات 171- 173 (3) آل عمران- 105 (4) الانفال- 46

لاشك أن لهذا الأمر أصولا وجذورا بعيدة تمتد من منتصف القرن الأول الهجري وحتى حاضرنا هذا، الا أننا سنقتصر في هذه التقدمة على ملاحظة الأسباب الحاضرة القريبة دون البعيدة ، مرجئين الحديث عن أصول وجذور التفرق الى مواضعها من البحث ان شاء الله تعالى .
هناك عاملان أساسيان أديا الى ضعف وتفرق الاسلإميين خاصة، عامل داخلي وعامل خارجي .

أما العامل الخارجي فهو ناشئ مما يكاد لهم من مكر، وما يكال لهم من ضربات أدت الى ضعفهم وعدم تمكنهم من ابراز دعوتهم والجهر بها وعرضها على العامة من الناس ليدخل فيها من شاء الله تعالى له الهداية، فظلت القلة العددية النسبية لهم – اذا قورنت بالقاعدة العريضة لجماهيرالناس الغافلة عن الهدى المنتسبين الى الإسلام انتسابا دون وقوف على حقيقته ومقتضاه – ظلت قلتهم العددية تلك سببا في ضعفهم، وظلت سمتهم الرئيسية – في غالب الأحوال – هي الأستخفاء بأمر الدعوة حسب ما أداه اليه اجتهادهم خوف البطش والتنكيل من اعدائهم المتربصين .

وكان من لوازم ذلك ونتائجه أمورعدة نذكر منها أن الأمر قد أقتصرعلى التلويح بالدعوة دون التصريح بها صافية غضة متكاملة عقيدة وعملا كما أرادها الله عزوجل، كذلك التصريح ببعض ما تشتمل عليه الدعوة المباركة من مفاهيم وتوجيهات ، وكتمان أكثر ما ينبني على تلك المفاهيم والتوجيهات الربانية من أمورهي نتائج حتمية لها، وهذه النتائج تنظم مناحي الحياة كلها سواء الاجتماعية أو الاقتصادية او السياسية .

والدعوة المباركة في أول طريقها، كالغرسة الصغيرة تحتاج الى الرعاية والعناية والى الدفىء والغذاء والكمون، وهي بعد بذرة ضعيفة قذ وضعتها يد العناية تحت طبقة الأرض، بعيدة عن الأيدي والأبصار، لتمنع عنها غائلة القوى التي تعمل على القضاء عليها في مهدها حتى تكبرشيئا فشيئا، ثم تبرز للعيان وتقوم على ساق وتتعرض للشمس والهواء فيشتد عودها وتنمو فروعها وتطرح ثمارها بما ينفع الناس

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (1) .

ولابد بعد الكمون من تفتح وانطلاق.. وهو ما لم تمكن منه العوامل الخارجية المحيطة بالدعوة، مما أدى الى ضعف الاسلاميين وانكماشهم داخل دائرة محدودة لايتجاوزونها.
وقد كان من نتائج هذا الجو المحيط بالدعوة الاسلإمية أن تضاربت المفاهيم عن الإسلام وحدوده، والايمان ودرجاته، وكثير من القضايا الاعتقادية التي تمس جوهر التوحيد، كما انبنى على ذلك تضارب المفاهيم العملية التي تستمد شرعيتها من القواعد النظرية، فظهرت البدع القولية، والعملية وباضت وفرخت وأخرجت لنا ما يراه الدارس للحركة الإسلامية من تفرق وتشتت واختلاف بين ابنائها منعت من اتحاد كلمتهم تحت قيادة واحدة تعطي لها صفقة اليد واللسان، ويرفع الله بها الاختلاف المذموم .

أما العامل الداخلي فهو المؤثرالرئيس- كما نحسب - فيما آلت اليه حالة المسلمين خلال القرون الماضية من تفرق وتأخر، ونعني بالعامل الداخلي تلك الأمور التي تنشأ داخل المجتمع نفسه نتيجه حركته الذاتية ونتيجه ما يواجهه من أحداث ومواقف وأوضاع سياسية أو أقتصادية أو اجتماعية او علمية، فالتعصب والهوى والجهل والقول بغير علم واتباع الرؤوس الجهال والعجب بالرأي كل ذلك انما ينشأ من داخل المجتمع نتيجة ظروفه الخاصة وأوضاعه الداخلية .

ومجتمع الإسلاميين اليوم أشبه ما يكون بالمجتمع الإسلامي الكبير في حركته خلال القرون الماضية، وما يسوده من تفرق وتشتت انما هو صدى لذلك التفرق القديم الحديث الذي ساد المجتمع الإسلامي في حركته عبر التاريخ .

ولانقول ذلك بمجرد الإستقراء التاريخي والواقعي للأحداث، بل هو ما دل عليه الشرع، وأنبأ به سيد المرسلين عليه صلوات الله عليه وسلامه فيما رواه عنه الإمام أحمد بسنده عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها قال : قلنا : يا رسول الله أمن قلة بنا يؤمئذ قال: أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن قال : قلنا : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت**) (2) .

(1) الفتح - 29 (2) ج 5 - ص 278

ولابد لنا من بعض التفاصيل لتلك الجملة ليتضح المقصود بذلك ، أن الله سبحانه وتعالى قد سن سنن كونية – طبيعية وأجتماعية- تجري على كافة خلقه دون تحيز أو تميز، هذه السنن تربط المجتمعات في حركة صعودها وهبوطها، وتقدمها وتأخرها، وتحكمها بما لايدع منها فكاك . يقول الأستاذ جودت سعيد :

(ولاشك أن تركيب المجتمع، وغنى فئة فيه وافتقارأخرى، أمور خاضعة لقوانين وسنن اجتماعية اذا خفيت عن عيني الإنسان اشتبهت عليه الأمور زتداخلت في ذهنه المشكلاتن وظن أن القضية فوضى لاضابط لها ولا عدل فيها ولاتصدرعن حكيم عليم. إن الذي عرف قوانين المجتمع يمكن أن يستخدم وسائل مختلفة لقياس صلابة المجتمع، وسلامة شبكة علاقاته، كما يمكن أن يستعين بمختلف التحاليل التي يجريها على الأحكام التي يصورها المجتمع على تفسير الأحداث، ليحدد نوع الخلل الذي يعانيه المجتع . إن الخبير بسنن المجتمعات يمكن أن يدرك، ويتخذ إجراءات في تغيير نظرات المجتمع...) (1)

وقد دلنا الله سبحانه على هذه السنن فيما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقد قال تعالى مجملا : وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا (2) ، وقال تعالى : لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ (3) .

ثم فصل تعالى من تلك السنن ما يهدي الناس الى فهم تلك الحقيقة العظمى والإعتبار بها والعمل بموجبها .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ (4) . و قال تعالى : لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (5) .

فالسنة المذكورة في الآية الاولى جاءت بلفظ مطلق هو (قوم) أن قوم والسنة في الآية الثانية جاءت بلفظ مطلق أيضا هو (أمة) أي أمة .

وقد ربط القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بين السنن الطبيعية والسنن الإجتماعية في عديد من الأمثلة تقريباً للافهام، وتقريرا لحقيقة تلك العلاقة التي منشؤها اتحاد كليهما في مصدره، حيث أن كليهما من سنن الله تعالى التي لاتتبدل، والتي تحكم في عمومها الخلق من حيث هو خلق طبيعي كالمادة أو ماديَ روحي كالبشر .

قال صلى الله عليه وسلم : **(ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى نت عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)** رواه البخاري .

وعن النعمان ابن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم **(مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين ثي أسفلها إذا استقوا من الماء مَروا على من فوقهم فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا ولل نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعاً)** رواه البخاري .

يقل الأستاذ جودت : (والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب مثلاً ً آخر تمتزج فيه السنة المادية بالسنة الإجتماعية، في مثل السفينة وركابها، وعلاقة سنن المركب بسنن المادة تارة، وسنن البشر تارة أخرى، هذا المثل يذكره الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين أن للمجتمع يترابط به ليحميه من الغرق .

من السهل إمكان إدراج نتائج الخرق الذي يحدث للسفينة، ولكن ليس بمثل هذه السهولة إمكان إدراك نوع الخرق الذي يحدث للمجتمع) . (6)

ثم نضرب مثالاً ً يبين أن السنن الإجتماعية التي سنها الله تعالى لا تختص بأمة من الأمم، بل هي تربط العمران البشري بقوانين واحدة لاتتخلف . يقول ابن خلدون : (والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق الذي هو الغاية عجزت واقصرت عما وراءه ... ثم إذا أدركها الهرم والضعف فإنما تأخذ في التناقض من جهة الأطراف ولايزال المركز محفوظاً ً

(1) حتى يغيروا ما بأنفسهم ص21 والحق أنه كان من اللأوفق أن يضرب الكاتب المثل بالقوة والضعف إذ أن الفقر والغنى يخضعان للسنن الإلهية كما يخضعان للسنة الإجتماعية المتعلقة بالإسباب والمسببات .

(2) الأحزاب - 62 (3) الروم - 30 (4) الرعد - 11 (5) يونس -49 (6) حتى يغيروا ما بأنفسهم – ص25

إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملة فحينئذ يكون انقراض المركز،وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الاطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها ... وانظرهذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون على المدائن أنقرض أمر فارس أجمع ولم ينتفع يزدجر بما بقى بيده من أطراف ممالكه وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم فلم يزل ملكهم متصلا بها الى ان تأذن الله بانقراضه، وانظر أيضا شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصرلأسروقت ثم تجاوزا ذلك الى ما وراءه من السند والحبشة وافريقية والمغرب ثم الى الاندلس فلما تفرقوا حصصا على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفذ عددهم فن تلك التوزيعات وأقصروا على الفتوحات بعد، وأنتهى أمر الإسلام ولم يتجاوز تلك الحدود، ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدولة من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاذ عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء، سنة الله في خلقه) (1) .
وقد غابت تلك الحقيقة العظمى عن عقول الإسلاميين، فلم ينفذوا إلى الأسباب الحقيقية وراء مشاكلهم، وبالتالي لم يستطيعوا أن يضعوا الحلول السليمة المدروسة لها حسب سنن الله تعالى وقوانينه، فنشأ التخبط واضطربت الخطوات، وتفرقت الجهود .

ومثال مما دل عليه الله سبحانه من سنن تهدي المسلمين خلال دروب الحياة الدنيا، من خلال ماوصى به في مفردات التشريع قوله تعالى : وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ (2) .

فهذه الآية الكريمة وإن كانت أمراً مباشراً للمسلمين بإعداد العدة والقوة - بكل انواعها سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية - لملاقاة الكافرين إلا أنها تدل بمفهومها على أن إعداد العدة سبب الى النصرعلى أعداء الله تعالى قد أمرنا باتخاذه، والإخلال به مؤد بطريق اللزوم الى الإخلال بنتائجه من عدم إمكان النصر والتفوق والعلوّ .

فإن مما قدره الله سبحانه وتعالى ربط الأسباب بنتائجها - على وجه العموم - فالإتيان بالسبب على الوجه الأكمل ينشأ عنه المسبب والنتيجة بأذن الله تعالى، فإن لم تنشأ النتيجة فلابد من وجود خلل في الأخذ بالسبب وان توهمنا غير ذلك . وانظرإلى عبرة السيرة النبوية في غزوتي بدر الكبرى وأحد ترى مصداق ماقررناه واضحا، ففي غزوة بدرجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بما استطاع من عدة وعدد يتكافأ مع الغرض الأصلي الذي خرج لأجله مع أصحابه وهو ملاقاة قافلة أبي سفيان لاغير وقد قدرالله سبحانه غير هذا اللقاء، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك النقص في الأخذ بالسبب، فشاور أصحابه من الأنصار حتى يكونوا على يقين عند اللقاء ثم أكمل صلى الله عليه وسلم النقص في العدة المادية - الذي حدث دون علم منه أو رغبة إليه – بالدعاء لله تعالى حتى أنه بالغ في الدعاء مبالغة دفعت الصديق أبا بكر الى أن يقول : (يانبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ماوعدك) (3) .

والدعاء سبب من الاسباب التي جعلها الله سبحانه للتوصل بها الى الأهداف بجانب الأسباب المادية التي لابد منها، فتم المقصود وحصلت النتيجة وانتصر المسلمون.

والإعتماد على الأسباب المادية كلية لايكون إلا مع إنعدام الثقة بالله تعالى، بل هو خلع مستترلربقة الإسلام، بينما إغفال الأسباب المادية بالكلية إعراض عن سنن الله تعالى في الكون والحياة وإغفال لأوامره إجمالا وتفصيلا بل الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم لصاحب الناقة (**إعقلها وتوكل**) (4) وهو جارعلى مقتضى الجمع بين قوله تعالى :
وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وقوله تعالى : وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ (5) .
أما في غزوة أحد فعندما أغفل المسلمون اتباع الأمر، وفرطوا في الحرص واختل الأخذ بالسبب، انهزموا أمام اعدائهم، وجعله الله تعالى درساً لا ينسى لهم وللمسلمين من بعدهم أنه لادالة خاصة لأحد من البشرأوأمة ن الأمم ان لم تتقند بما سنه الله تعالى من سنن لاتتبدل .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى :

---

(1) مقدمة ابم خلدون – ص 162 (2)الأنفال - 60 (3) تهذيب السنرة لعبد السلام هارون – ص 165
(4) جزء من حديث رواه الترمذي ، انظر : ابن الاثير جامع الأصول11 /792 (5) غافر – 60

(والأمور لاتمضي في الناس جزافا،والحياة لاتجري في الأرض عبثاً ،فهنالك نواميس ثابتة تتحقق لاتتبدل ولاتتحول، والقران يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولايعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة، محصورين في فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان، ويرفع تصوراتهم لارتباطات الحياة، وسنن الوجود فيوجههم دائما إلى ثبات السنن واطراد النواميس ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس) (1) .

والسنن تستلزم تدبر ماكان من أحداث ماضية، والاعتبار بتجارب الغير من المسلمين أو غيرهم من الأمم والملل وذلك - كما يقول ابن خلدون – (حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرون في أحوال الدين والدنيا) (2) وقد قال تعالى :

قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ (3) .

فأن التدبرفي عاقبة الماضين، والنظرفيما جرى للغابرين، لهو عبرة حية من الأوليين للآخرين، حتى نستفيد منها ونتلافى ماوقع لهم نتيجة خطأ أو زلل .

ولا فرق هنا بين الاعتباربتجارب الأمم السابقة التي ضلت ضلالاً تاماً ،وأخذها الله بذنوبها فأنزل بها العذاب الدنيوي قبل الأخروي، وبين الاعتبار بتجارب المعاصرين من الإسلاميين الذين خاضوا معترك العمل الإسلامي من منطلقات فيها خطأ أو انحراف - فكري – فأدى بهم الى نكبات ومحن وأدت بالعمل الإسلامي ذاته الى التقهقر والتأخر، لأن السنن هي السنن، والعوامل التي أدت إلى انحلال وتفرق المسلمين، هي بذاتها- او قريبا منها - التي أدت الى انحراف الأمم السابقة وهو مدلول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الصحيحان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه . قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟) .**

يقول الأستاذ جودت سعيد تعليقاً على الحديث :

(ومثل هذا النظر إلى الموضوع، هو الذي نفتقده الآن وعلينا أن نكتسبه، لأن هذه النظرة القرآنية هب التي تجعل المسلم قادراً على الإعتبار الذي يلح عليه القرآن .

فأمامنا تجارب القرون الماضية، تجارب كثيرة تهر فيها سنن تغييرالأقوام التي خضع لها المسلمون أيضا كأي قوم من الأقوام.

وفي الواقع ان هذا النظرالقرآني يجرد الإنسان من ملابساته، ويرجعه الى أصله المجرد الذي يخضع للسنن) (4) .

ومن سنن الله تعالى التي لابد من اعتبارها للوصول الى الأهداف حسن التدبر والتخطيط ، والبعد عن التجريدات النظرية واتباع قوانين الملاحظة والتجربة العلمية وعدم التواكل والغفلة، والحذر الجريء، والاقدام في مواطنه،والاحجام حيث تدعوا المصلحة الشرعية الى غيرذلك مما لايدعوا المقام الى الاستطراد في تفصيله إذ يهدف البحث الى غير الهدف الذي ننشده هنا ، وإنما اردنا أن نستدل على أن إهمال تلك السنن الكونية الثابتة ،وعدم اعتبارها أدى الى الضعف والإنحطاط والتشتت والتفرق، ولايزال سبباً فيما يعاني منه الإسلاميين حتى اليوم من بعد عن عن الهدف وتشتت في النظروتأخر في الأساليب، ولاسبيل إلى الوصول لإلى الهدف المرجو إلا بالنظر بذلك المنظار الذي يجعل المسلم يدرك خضوعه لقوانين الله المبثوثة في الكون كما يخضع لشرائعه المنزلة في كتبه .

يقول الأستاذ جودت : ولكن المسلم لاينظر عادة إلى مشكلة المسلمين بهذا المنظار الذي يجعل المشكلة الإسلامية خاضعة لسنن عامة تشمل البشرجميعاً . فهو يرى أنه ينبغي أن تكون مشكلة المسلمين غيرخاضعة لما يخضع له سائر البشر فس مشكلاتهم، ويفعل المسلم هذا حين يفعل، بروح من التسامي والتقديس. ذلك أنه يظن أن رفع شأن المسلمين إنما يكون بعدم خضوعهم للسنن التي يخضع لها سائر البشر) (5) .

فمنهج النظر الأصلي هو الذي جعل سلفنا الصالح يصل الى الذرورة العليا ويتقلد أزمة الأمور في مشارق الأرض ومغاربها ، وجعل مسلمي اليوم لايكادون يملكون امررقعة الأرض التي يعيشون عليها - نستغفر الله - بل يكادون أن ينازعوا في مساكنهم وأهليهم ! فيا لها من فتنة تدع الحليم حيوانا .

---

(1) في ظلال القرآن ج 5 – ص 2950 (2) المقدمة – ص 9 (3) الروم – 42 (4) حتى يغيروا ما بأنفسهم ص33

(5) السابق ص 32 ، وكلام الأخ جودت صحيح مع بشكل عام ، مع اعتبار أن الله يدافع عن الذين آمنوا إذا قاموا بواجبهم الحقيقي فهنا لهم مزية في صراعهم مع الكفار

ثم نعود مرة اخرى إلى التفرق والإختلاف الذي هو منشأ الضعف والإنحلال - والذي يدور عليه بحثنا خاصة – فنقول :

إن كتاب الله تعالى قد ضرب لنا من الأمثلة عن اختلاف من سبقنا من الأمم الكثيرة، كما أبان لنا في بعضها سبب هذا الإختلاف .

قال تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (1) .

وقال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (2) وقال تعالى : وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (3) .
وقد دلت هذه الآيات على أمرين جامعين :

أولهما أن الإختلاف في الأمم السابقة كان مع وجود العلم بينهم وليس في حالة فقده كما قال تعالى : مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

وقال تعالى : إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ (4).
ولايكون ذلك إلا عن أحد الطريقين : إما التأويل أو التبديل .

والثاني هو تحذير الله سبحانه وتعالى للمسلمين من عدم التفرق مثلما تفرق الذين من قبلنا، وذلك بالتصريح تارة كما في قوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا) أو بالتلميح أخرى كما في قوله تعالى : (لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) فإن ذلك كالنص على عدم التفرق والتشتت، إذ أن من يتبرأ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون عمله منهيا عنه بطريق اللزوم .

ورغم ذلك الأمر الشرعي الإلهي بعدم التفرق والإختلاف، فقد جاء الأمر القدري التكويني بخلاف ذلك، ودلت الأحاديث الصحيحة الصريحة بما يؤكد أن الخلاف واقع قدراً - لامحالة - بين هذه الأمة .
فمن ذلك مارواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **(تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، أوأثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)** (5)

وروى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه أقبل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل، فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً ثم انصرف فقال :
(سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنين ومنعني واحدة، سألت ربي : أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها. وسألت ربي : أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها. وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها) (6)
وفي حديث ثوبان الذي رواه مسلم: **(سألت ربي لأمتي أن لايهلكها بسنة عامة وأن لايسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم نت بأقطارها - أوقال : من بين أقطارها – حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً)** (7) .

يقول الامام ابن تيمية تعليقا على هذه الأحاديث :

(وهذا المعنى محفوظ عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه، يشيرإلى أن الفرق والاختلاف لابد من وقوعهما في الأمة وكان يحذرأمته من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة، كما روى النّزال بن سبَرُة عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رجلاً قرأ آية سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها فاخذت بيده فانطلقت به الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال : كلاكما محسن، ولاتختلفوا فإ ن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) (8).

ولقائل أن يقول : فأن ما ذكرتم حقاً من أن القدر الكوني جاء بوقوع الخلاف والتفرق وأخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم خبراً جازماً من ضرورة وقوعه، فما الفائدة من التنبيه عليه والتحذير منه إن كان لابد واقعاً ؟

(1) آل عمران – 105 (2) الأنعام – 159 (3) البينة – 4 (4) الاستثناء بالابعد النفي يفيد التأكيد على ذلك المعنى وهو أنهم ضلوا بعد أن جاءهم العلم .
(5) رواه أبو داود : كتاب السنة 4\187 ، ورواه ابن ماجة والترمذي وقال عنه حسن صحيح (6) السّنة : الجدب والقحط العام
(7) صحيح مسلم – 2116 – كتاب الفتن ط – دار الفكر (8) رواه مسلم – 2215 - كتاب الفتن ط – دار الفكر

فنقول وبالله التوفيق : إن إيضاح ذلك يكون بثلاثة أوجه :

أولها : أنه يجب أن يميز المسلم بين الأمر الشرعي، والقدر الكوني تمييزاً واضحاً لأهمية هذا المقام في فهم الكثير مما أشكل فهمه على من خفي عليه هذا الموضع فأن إرادة الله سبحانه وتعالى تشتمل على مايحبه ويرضاه أو على مايبغضه ولايرضاه ، فالإرادة الكونية هي الإرادة التي يقع بمقتضاها كل مافي الكون من امورسواء وافقت شرع الله أو خالفته وسواء جاءت على وفق رضا الله أو بغضه . والإرادة الشرعية هي الإرادة التي لايقع بمقتضاها إلا مايحبه الله تعالى ويرضاه من عباده، وهي - من ثم - الموافقة للأمروالنهي ، فالأمروالنهي موافقان للإرادة الشرعية ، إذ الأمريعني طلب الله سبحانه فعل مايرضاه ويحبه ، والنهي يعني طلب من الله سبحانه عدم فعل مايبغضه .

والله سبحانه قد بين في كتابه في كل واحدة من (الكلمات) و (الأمر) و (الإرادة) و (الاذن) و (الكتاب) و (الحكم) و(القضاء) و(التحريم) ونحو ذلك ماهو دين موافقة لمحبة الله ورضاه وامره الشرعي ، وماهو كوني موافق لمشيئته الكونية .

مثال ذلك أنه قال في (الأمر الديني) : إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وقال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ونحو ذلك ، وقال في (الكوني) : إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ وكذلك قوله :

وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ على إحدى الأقوال في هذه الآية .

وقال في (الإرادة الكونية) : وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ وقال : فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ .

وقال نوح عليه السلام : وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ.

وقال تعالى : إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (1)

فإذا وضح هذا المقام أمكن التمييزبين كلا الأمرين وهو أن الفرقة والاختلاف واقعان لامحالة وهي الإرادة الكونية القدرية ، وأن الأمر الشرعي هو النهي عن الوقوع فيهما ولاتعارض بينهما كما تبين .

الثاني أن الدعوة إلى مذهب السلف الصالح لهذه الأمة وبيان فساد ماشذ عن هذا المنهج يؤدي الى تكثير الفرقة الناجية المعتصة بالحق . روى مسلم في صحيحه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمرالله وهم على ذلك)** .

وفي حديث الفرق قال صلى الله عليه وسلم - في إحدى الروايات – (إحداهما الناجية) فالطائفة الظاهرة على الحق الناجية المنصورة هي التي تتبع ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأهل السنة والجماعة من بعدهم، فوجبت الدعوة إلى ماهم عليه تكثيراً لسوادهم وتقليصاً لحجم من خالفهم من أهل الأهواء والبدع وكفى بذلك داعياً لنصرو مذهبهم والدعوة اليه .

يقول ابن تيمية رحمه الله :

(ولا يقال : فإذا كان الكتاب والسنة دلا على وقوع ذلك فما فائدة النهي عنه ؟ لأن الكتاب والسنة أيضا قد دلا على ظانه لايزال في هذه الأمة طائفة متمسكة بالحق إلى قيام الساعة، وأنها لاتجتمع على ضلالة ففي النهي من ذلك تكثير لهذه الطائفة نسأل الله المجيب أن يجعلنا منها) (2) .

الثالث أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل مفروض على كل مسلم حسب القدرة والطاقة، بشرط أن لايؤدي إلى فساد اكبرمنه بطبيعة الحال كما تبين في الأصل – بل الواجب على كل مكلف أن يأمربالمعروف وينهى عن المنكر بحسب طاقته حتى يتقي العذاب كما في قوله تعالى :

(1) مجموع الفتاوي لابن تيمية ج 10 – ص 24

(2) اقتضاء الصراط المستقيم ص - 44

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾(1) .

يقول ابن كثير في تفسير الآية :

(يخبر الله تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا الى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ... قال تعالى : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة (أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا) أي ارتكبوا المعصية (بِعَذَابٍ بَئِيسٍ) فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لايستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين (2) .

وقد عرف الواقع الإسلامي بداية التفرق مع حلول النصف الثاني للقرن الأول الهجري (3) ، وبالتحديد في أواخر خلافة علي رضي الله عنه، فقد ظهرت بدعة (الخوارج) أولا كفرقة سياسية دعت الى الخروج على علي رضي الله عنه، وقد أدى بها الأمر إلى أن انتهجت نهجاً معيناً في النظر للنصوص حتى تصل إلى مفهومها السياسي الذي كانت تدعوا إليه من ضرورة الخروج على علي ومعاوية معاً ، ومن ثم تبلور لها منهج فكري محدد اتسم بظاهرية شديدة وغلو شديد في النظرللنصوص مع كونهم كانوا متشددين في العبادة وصدق فيهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى زيد بن وهب قال عن علي ابن أبي طالب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **(يخرج قوم من أمتي يقرؤن القرآن يحسبون انه لهم وهو عليهم لاتجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية)** رواه مسلم وأحمد .

ثم يبعث بعدها الرافضة الذين تخفوا وراء ستار التشيع لأهل البيت، وابتدعوا في الدين مالم ينزل به سلطانا - مما سيتضح لنا أثناء دراستنا التفصيلية لهذه الفرق – فغيروا وبدلوا وردوا الأحاديث الصحيحة واتخذوا طريقهم إلى ذلك الطعن في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي هريرة وغيره ... بل تطاولوا إلى رمي الإمامين الراشدين أبا بكرالصديق والفاروق عمر بالكفر - عياذاً بالله - تحت دعوى أنهما اغتصبا من الإمام علي الخلافة والولاية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل منهم من غلا أكثر من ذلك فادعى الألوهية لعلي رضي الله عنه - كالسبأية - فحرقهم علي جزاء لهم على ذلك فقالوا : (لايحرق بالنار إلا ربها) (4) .

فكان (الرفض) (كالخروج) مثالاً لما يؤدي إليه التطرف والغلو من تنكب للصراط المستقيم، وانحراف عن الطريق القويم .

يقول ابن تيمية :

(واول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب فعاقب الطائفتين أما الخوارج فقاتلوه فقاتلهم، وأما الشيعة فحرق غالبيتهم ،وطلب قتل عبدالله بن سبأ فهرب منه وأمر بجلد من يفضله على أبي بكرالصديق وعمر،وروي عنه من وجوه كثيرة أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكرثم عمر – رواه البخاري (5). وقد ظهرت كذلك فرق عديدة بدأت في أولها بصبغة فكرية ثم انقلبت إلى الوجهة السياسية كالمعتزلة الذين طغوا وبغوا على من خالفهم حين تمكنوا من مقاليد الأمور أيام الخليفة المأمون العباسي فأجبروا العلماء على الإقرار بعقائدهم الفاسدة من ادعائهم خلق القرآن وأنهم أهل العدل لانكارهم القدر،وأهل التوحيد لتعطيلهم صفات الله الثابتة له وما ابتدعوه من أن المسلم العاصي مخلد في جهنم في منزلة بين المنزلتين،الكفر والإسلام ! وغيرذلك كثيرمما استهواهم إليه الشيطان فطغوا وبغوا وكانوا بذلك أول من خالف مبادئهم الداعية إلى الحريو الإنسانية في الإعتقاد والعمل .

ثم كانت بدعة الإرجاء وهي الطامة التي أتت على الوادي فنشرت الفساد في المجتمع الإسلامي لما ادعته من أن المسلم هو من

---

(1) الأعراف 164- 165
(2) تفسير ابن كثير : 2 / 258 – ط. مكتبة الرياض الحديثة .
(3) راجع الفتاوي لابن تيمية 12 / 208
(4) راجع الفتاوي لابن تيمية ج 13 – ص 208
(5) الفتاوي لابن تيمية ج 1 / ص 279

نطق بالشهادتين لفظاً دون اي التزام بالعمل ! وإن خالف أصول الشريعة وعقائدها وناقض التوحيد بفعله ، وجهل أصل دين الأنبياء الذي تطابقت عليه دعوتهم من افراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية بل زعموا أنه لايضرمع إيمان معصية كما لاينفع مع كفر طاعة ! وأن المسلم سيدخل الجنة بلا ريب دون أن يرد الجحيم مهما أتى من أفعال، ففتحوا باب الفساد والاستهتار بالشعائر والشرائع، وجرأوا الناس على حدود الله تعالى، فكانوا دعاة فسق وانحلال بما نشروا من مبادىء .

ونحن في هذه التقدمة لانقصد إلى استقصاء أسماء الفرق التي نبعت في الإسلام، فإن ذلك ماسيدور عليه البحث تفصيلا خلال دراستنا للفرق الكبرى المؤثرة في الواقع الإسلامي - كالخوارج والمرجئة والروافض والمعتزلة والصوفية والقاديانية والبهائية ... - ولكنها مجرد عجالة تنقلنا إلى ذلك الواقع الأليم الذي عاشه المسلمون ممزقين بما جنته عليهم تلك الفرق من تشتت وضعف .
وان مايهمنا في هذه العجالة أن ننبه إلى أمرين هامين بالنسبة لما نشأ من فرق في الإسلام .

أولهما : ان كل فرقة من تلك الفرق قد ألبست الحق بالباطل فأخرجت للناس بدعها وضلالها تحت لافتات إسلامية، وقي قوالب إسلامية ليغتر بها العامة فيتبعوهم معتقدين أنهم على الكتاب والسنة مقيمون، ولمذهب السلف الصالح متبعون .

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان بعد كلام عن التحيل الباطل :

(... وإنما غرضه التوصل التوصل بها إلى ماهو ممنوع منه، فجعلها سترة وجنة يتستر بها من ارتكب مانهى أخرجه في قالب الشرع، كما أخرجت الجهمية التعطيل في قالب التنزيه .
وأخرج المنافقون النفاق في قالب الإحسان والتوفيق والعقل المعيشي .
وأخرج الظلمة الفجرة الظلم والعدوان في قالب السياسة وعقوبة الجناة .
وأخرج الروافض اللإلحاد والكفر والقدح في سادات الصحابة وحزب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوليائه وأنصاره في قالب محبة أهل البيت والتعصب لهم وموالتهم .
وأخرج فسقة المنتسبين إلى الفقروالتصوف بدعهم وشطحهم في قالب الفقروالزهد والأحوال والمعارف ومحبة الله ونحو ذلك .
وأخرجت الإتحادية أعظم الكفر والإلحاد فس قالب التوحيد وان الوجود واحد لا اثنان زهز الله وحده فليس هاهنا وجودان خالق ومخلوق ولا رب ولاعبد بل الوجود طله واحد وهو حقيقة الرب .
وأخرجت القدرية إنكار عموم قدرة الله تعالى على جميع الموجودات، أفعالها وأعيانها في قالب العدل، وقالوا : لو كام الرب قادراً على أفعال عباده لزم أن يكون ظالماً لهم فأخرجوا تكذيبهم بالقدر في قالب العدل .
وأخرجت الخوارج قتال الأئمة والخروج عليهم بالسيف في قالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
وأخرج أرباب البدع جميعهم بدعهم في قوالب متنوعة بحسب تلك البدع فكل صاحب باكل لايتمكن من ترثيج باكله الإبإخاجه في قالب حق) (1) .

فهذا المعنى ينبغي أن يتعمقه الإسلاميون في هذا العصر المضطرب المائج بالفتنة القولية والفعلية ،حتى لايخدعهم عن دينهم خادع ولايزيف لهم الأصول الإسلامية الصحيحة مزيف، فينقادوا ورائه غافلين، وهم يحسبون أنهم مهتدون .

والثاني أن كل فرقة من تلك الفرق قد جاءت بما يضاد الأخرى فالخوارج تشددوا وتنطعوا حتى أخرجوا المسلمين من دائرة الإسلام وجعلوا مرتطب المعصية كافراً مخلداً في النار وأشاعوا اليأس والقنوط من رحمة الله .

بينما المرجئة تساهلوا وتسيبوا حتى أدخلوا في الإسلام كل منتسب اليه وإن ناقض التوحيد بأقواله وأفعاله ،وأوجبوا أن يدخل الجنة كل ناطق بالشهادتين دون حساب فأشاعوا الفسق والمعاصي في الناس .

كذلك المعتزلة قد عطلوا صفات الباري سبحانه ، وادعوا العدل والتوحيد بذلك التعطيل، بينما المجسمة قد أثبتوا له سبحانه جوارح كما هي للبشر تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

---

(1) إغاثة اللهفان ج 2 ص 81

والجهمية أنكرت الإرادة الإنسانية مطلقاً وأثبتت القدر وجعلت الإنسان بلا إرادة ولااختيار،بينما القدرية أطلقوا الإنسان من مشيئة الله تعالى وأنكروا القدر، وجعلوا الإنسان يفعل مالايشاء الله سبحانه .

فكل فرقة جاءت بطرف النقيض مع غيرها، وكانوا جميعاً إما مفرّطين أو مفرطين، وهكذا الإبتداع والغلو والتطرف لايؤدي إلا إلى مناقضة الكتاب والسنة والشريعة الوسيطة التي عليها أهل السنة والجماعة .

يقول محمد عبد الله دراز :

(وإذن فبدلاً من ان يؤكد الأشاعرة القدرة الإلهية الكاملة التي غاب عن المعتزلة تأكيدها، وبدلاً من أن يجعلوها في مقابل الحكمة التي حاول المعتزلة إبرازها - نجدهم بدافع الحمية وقلة الحنكة النظرية - قد ألغوا تقريباً الحكمة من أجل القدرة) (1) .

ويقول ابن تيمية : (المتكلمة يجعلون العقل وحده أصل علمهم ويجعلون القرآن والإيمان تابعين له، وكثيرمن المتصوفة يذمون العقل ويرون أن الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل، وكلا الطرفين مذموم) (2) .

ثم يقول رحمه الله تعالى : وهم " المسلمون " وسط في باب أفعال الله عز وجل بين المعتزلة المكذبين بالقدر والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله . وفي باب الوعد والوعيد بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين في النار وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد ون ومافضل الله به الأبرار على الفجار .

وهم وسط في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغالي في بعضهم الذي يقول فيه بإلهيته ، أو نبوة أو عصمة والحاقد منهم الذي يكفر بعضهم أو يفسقه وهم خيار هذه الأمة) (3) .

ويقول كذلك : (فهم " المسلمون " وسط في توحيد الله واسمائه وصفاته وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه ،لم يحرم عليهم شيئاً من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحل لهم شيئا من الخبائث كما استحلها النصارى ،ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى .

ولا غلوا في الأنبياء والصالحين كغلوالنصارى ،ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود ولاأشركوا بعبادته أحداً كفعل النصارى ،وأهل السنة والجماعة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل) (4) .

ويقول الشاطبي : (الشريعة جارية في التكليف على الطريق الوسط الأعدل والآخذ من الطرفين بقسط لاميل فيه ... . فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط) (5) .

ولقائل أن يقول : لماذا ندرس تلك الفرق القديمة البائدة التي عفى عليها الزمان ، والتي بادت فيما باد من الأيام ؟! ألم يتناولها الأئمة في كتبهم التي وضعوها عن الفرق والملل والنحل ففندوا تلك الآراء ،واظهروا باطلها وأبانوا مقاصدها ؟

والجواب : أن هذه الفرق قديمة حديثة في آن واحد، فإن امتداداتها لاتزال تسري مسرى الميكروب في الجسم ينخر بالداء المهلك ،فنحن لانزال نسمع من هنا وهناك على امتداد رقعة الأرض الإسلامية افكاراً ممسوخة لآراء المعتزلة يتشدق بها بعض المغرضين من المتعالين الذين استهوتهم حضارة الغرب وأساليبها فادَّعوا أن العقل هو الحاكم في حياة الأنسان وأنه لانجاة ولاعلو لنا في خضم التيار الحضاري الحديث إلا باتباع العقل وحده وترك أمور " ماوراء الطبيعة " لتقبع في زاوية من زوايا الوجدان الإنساني كذكرى تغذي " المشاعر وتلهب العواطف في بعض الأحيان ليس إلا ! أما أن تتدخل .... " في طرق حياتنا ومعيشتنا وأساليبنا فهذا هو الخطروالتأخر، وهم في أقوالهم تلك يتسترون وراء أفكارالإعتزال التي مهدت لهم

(1) دستور الأخلاق ص 69 (2) الفتاوي ص338 (3) الجواب الصحيح ج1 / ص 8
(4) الجواب الصحيح ج1 / ص 6 (5) الموافقات ج 2 / ص 163 وبعدها كتاب المقاصد .

الطريق إلى ماادعوه من سلطان للعقل على الشرع فأمنوا من الناس أن يرموا بالإلحاد والزندقة ،واستطاعوا بث أفكارهم الخبيثة المغرضة تحت شعار الإسلام منتسبين لإلى الإعتزال صراحة تارة ، والى التقدمية تارة أخرى .

كما لانزال نرى افراخ الخوارج بتنطعهم في الدين وافترائهم على الله والزيادة على شرعه بما لم ينزل به سلطاناً ،فضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ضاقت عقولهم عن أن يجمعوا أطراف الإسلام ويضّموا أدلته بعضها الى بعض فيفهموه فهماً سليماً بعيداً عن التطرف والزيغ وبعيداً عن ضيق الأفق وانغلاق العقل، لانزال نراهم بين أظهرنا متمثلين في جماعات تدعوالى ضلالها - خلاف بقايا المعتزلة الذين لم يعد لهم وجود كجماعات وإنما كدعوات فردية تظهر من خلال فكر أو كتابات صحفية أو غيرها - وتؤثرفي الشباب المخلص المتعطش للعودة إلى دينه وعقيدته . فهم شباب مخلصون، ولكنهم وقعوا فريسة الحرفية - كما سيتبين بعد - وشهوة التشدد، وانها لشهوة خفية ، حيث يظن المرء أنه وحدة على حق ، وكل الناس على باطل !

وأما الذين يؤمنون بالإمام المعصوم ونائبه ويعتقدون في بشر أنهم يعلمون الغيب ،ويتصرفون في ذرات الكون، وأنهم لايموتون إلا باختيارهم ! وهم يقدسون العتبات ويطوفون والأضرحة وأولئك هم الروافض - الضالون المضلون - الذين استطاعوا - لما تقهقرت السنة وعلت البدعة وسادت الفرقة - أن يقيموا لهم دولة قوية بل وان يهددوا ما جاورهم من دول مجتمعة معاً .

ثم أليس عجيباً أن نرى الشباب المسلم - وهم من الشباب المثقف الجامعي ثقافة علمية أو نظرية - نراهم قد ألغوا عقولهم وغسلوا أدمغتهم وانخرطوا في صفوف " الصوفية " يستمعون إلى الدجل والخرافات والجهل واتباع المنامات ويتركون نور القرآن وضياء السنة والسبيل القويم ليأخذهم الشيخ إلى الفناء والاتحاد ! ويمر بهم في مراحل اليقظة والإنبهار ... إلى غير ذلك من مراحل ماأنزل الله بها من سلطان وحقاً إنه لفناء ! فناء العقل والتمييزالذي به كلف الله العباد .

إنه من أعجب العجب أن يقود جاهل هذه القافلة من الشباب الذين أستناموا للراحة من عناء التفكير والدرس والبحث والعمل وسلموا أنفسهم بهذه السهولة إلى رؤوس الشياطين من الإنس ليضلوهم عن سبيل الله . فهل ظنوا أنهم يرتوون روحياً عن هذه الطريق ؟! ربما ! المهم أنهم قد تخلوا عن قافلة الجهاد في سبيل الله وإقرارلا إله إلا الله في الأرض ، وهو عين ما يبتغيه المغرضون .

وإذن فلابد من الكتاب ولابد من البيان ،ولابد أن يقف الشباب على أرض صلبة واضحة المعالم ،ولابد أن يؤسس البنيان على قواعد سليمة متماسكة فقد قيل بحق : (لايستقيم الظل والعود أعوج) .

ولن نتخلص من الفرقة ولن نعود الى القوة ، مالم تتحدد لنا شخصية متميزة محددة بحدود وضوابط هي ماالختطه السلف الصالح لنا من منهج قويم يقوّم الإنحراف ويدفع إلى الأمام في كل مجالات الحياة ويعود علينا بخير الدنيا والآخرة .

فدراستنا هذه وإن كانت في ظاهرها دراسة للماض، ومراجعة للتاريخ الفكري لفرقة المبتدعة الذين جنوا على ماضي المسلمين ، إلا أنها دراسة حاضرة كذلك (1) من حيث أنها تكشف جذور البلاء الذي يشتت قوى الإسلاميين ويفرقهم شيعاً ، ويجعل بأسهم بينهم شديداً ، بل هي نور يضيء لشبابنا طريقه وسط هذا الظلام الفكري المفتعل الذي لايخدم إلا أعداء الإسلام وشانئيه . وسنبدأ إن شاء الله تعالى ببيان اسباب الخلاف بين طوائف الملة – سواء الداخلية أو الخارجية .

وستقع الدراسة إن شاء الله تعالى في عدة كتيبات تبدأ أولها - وهو ما بين أيدينا حاليا - بدراسة أسباب الخلاف الذي يقع بين طوائف الملة الداخلية والخارجية ، وايضاح تاثيرها على الشخصية الإسلامية وصياغتها في الماضي والحاضر .

ثم يتبع ذلك - بأذن الله تعالى - الحديث عن الفرق بشكل متتابع حسب ظهورها على مسرح الاحداث - ماأمكن - نبدأها بالخوارج ثم الروافض ثم المرجئة فالمعتزلة والجهمية ... إلى غير ذلك من أسماء كثيرة لعبت دوراً في ماضي المسلمين ،

(1) يقول ولي الدين الدهلي : وبالجملة إذا قرأت القرآن فلا تحسب أن ان المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا بل الواقع أنه مامن بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو موجود اليوم بطريق الأنموذج بحكم الحديث (لتتبعن سنن من قبلكم) الفوز الكبير / 26 .

ولاتزال آثارها تعيش بينهم وسنضرب الذكر صفحاً عن فرق بادت وأندثرت وطويت صفحاتها واختفت آثارها حتى لايكون البحث نظرياً مجرداً، بل يظل مرتبطاً بحياة الإسلام الواقعية المعاصرة .

ذكرنا فيما تقدم – أن العوامل التي أثرت – ولاتزال – في المسلمين ، والتي أدت الى تفرقهم وتشتتهم شيعاً، تنقسم الى :

1- عوامل داخلية .
2- عوامل خارجية .

فالعوامل الداخلية هي تلك التي تنشأ في داخل كيان الأمة نتيجة للتركيب الإجتماعي أوالإنحراف الفكري أوالأغراض الشخصية .... الى غير ذلك من أيباب تؤدي الى انقسام الأمة على نفسها تعصباً لفريق منها ضد فريق ، أو جهلاً من بعضها بالحق كله أو بعض ، أو بغياً منها على أخرى غلى غير ذلك كما سنبين بعد بشيء من التفصيل .

والعوامل الخارجية غنما المقصود بها تلك الأسباب التي أثرت في الأمة من خارجها نتيجة لأحتكاكها بمن سواها من الأمم احتكاكاً فكرياً واجتماعياً نتيجة الفتوحات مثلاً، أو الترجمة ونقل المعارف وقد استتبع ذلك أن دخلت على المسلمين مفاهيم وتصورات وأفكار وعادات غريبة عن الكيان الإسلامي جملة وتفصيلاً، فعملت غملها في إشاعة التفرق وتشعب الآراء والأهواء بعد أن تعددت الموارد التي يُستقى منها .

وسنبدا – بعون الله تعالى – بدراسة العوامل الداخلية ، أذ هي الأولى بالمبادرة والعلاج بين الإسلاميين ، لأنها ناشئة من بين أنفسهم وقد قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ (1) .

(1) الرعد 11

الفصل الأول

العوامل الداخلية

تمهيد :

حينما تدرج أمة – أي أمة – على مدارج النشأة والتكوين ،نجدها وقد استنفرت أحسن مافي أفرادها من الإمكانات والمواهب والقدرات في كافة المجالات السلوكية والإجتماعية والعلمية ، كما نجدها كذلك وقد أماتت مابين أفرادها من نزاعات هدامة تخرج بها عن طريقها المرسوم ، فنجدها تشق طريقها بقوة وبسرعة حتى تظهر على مسرح الحياة قوية فتية لامجال للضعف والتفرق بين أبنائها . ثم لاتلبث أن تصل إلى طور الإستقرار والتوسع الذي غالباً مايصاحبه الغنى بعد الفقر ، والترف بعد الخشونة ، والحضارة بعد البداوة فتستبدل شيئاً فشيئاً بمشاعر القوة والأندفاع مشاعر الترف والتنعم ، يبدأ افرادها في الأنشغال بما بين أنفسهم بدلاً من الإنشغال بمن هم خارج كيانهم من أعداء متربصين ، فقد أمنت حدودهم وتوسعت رقعتهم ، فإذا حدث ذلك وابتدع كل صاحب هوى بدعة اتبعه عليها فريق فيتعادون ويتخاصمون ، ثم يتنافرون ويتحاربون ، فيصيبهم الضعف ويطمع فيهم أعداؤهم وتبدا دولتهم في الأفول ، وينقصها الأعداء من أطرافها فيكون ذلك مؤذناً بظوالها وخرابها .

وعلى قدر الدافع الرئيسي الأول الذي اندفع به مؤسسوا الأمة وبناتها ، ومدى إخلاصهم وصدقهم في تلبيته يكون مدى توسعها وانتشارها في المكان ومدى طول بقائها واستمرار آثارها في الزمان .

ولذلك فالدافع الديني هو اقوى الدوافع التي تقوم عليها الأمم وتنشأ بها الدول والإسلام هو أقوى من قدّم – ولايزال – الدافع القاهر لمعتنيقيه – بعقيدته الحقة الصافية وكتابه الإلهي المنزل حتى حملهو على اكتساح العالم المتحضر آنذاك واخضاعه بقوة السيف وبرهان الكلمة ، فعلى السيف والقلم معا تعتمد الأمم في نشر مبادئها وتوطيد أركانها ودعائمها .

يقول ابن خلدون في (مقدمته) :

(لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والإفتراس والإشتراك في المجد فلاتزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدّهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون . والجيل الثاني متحول حالهم بالملل والترف من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ، ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنسُ منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم ....

أما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كان لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنقوه (1) من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالاً على الدولة ومن النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهّون بها وهم في الأكثر أجبن من النساء على ظهورها فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته..)(2) .

وقد مرت أمة الإسلام بتلك الأطوار كلها ، وتمثلت فيها – كما تمثلت في غيرها من الأمم – خاصة بعد انتقالها من الخلافة إلى الملك . فلما أن وصلت الى حد الترف والتنعم ، وبدأت الدنيا تأتي الى المسلمين وهي راغمة ، أخذ الشيطان يعمل عمله في نفوس الضعفاء من أبنائها ، مستعيناً عليهم بما في داخل أنفسهم من ضعف تارة ، وبما ورد إليهم من ثقافات تتناقض مع أساس عقيدتهم ومنبع علمهم – القرآن – تارة أخرى ، فظهرت فيهم أمراض فكرية وقلبية فتاكة لاتظهر في أمة إلا أضعفت بنيانها

(1) تفتق : تنعم بعد بؤس ، انظر حاشية المقدمة 2 / 546 نشرة علي عبد الواحد وافي .
(2) المقدمة ص 170، نقلنا هذا النص لابن خلدون لتوضيح فكرة الترف العقلي الذي أصاب المسلمين في بداية القرن الثاني ، وملاحظة ابن خلدون للدول استقرأها من كثير من الدول الإسلامية ولكنها ليست قاعدة عامة في أن الجيل الثالث يتحول الى الحالة التي وصفها .

ومزقت أوصالها وفرقت أبناءها . وأهم هذه الأمراض :

1- اتّباع الهوى
2- التعصب
3- الجهل

وسنحاول دراسة هذه العوامل لنلقي عليها ضوءاً يكشفها للإسلاميين في هذا العصر حتى نخرجها من زوايا العقول التي ربما تكون متأثرة بها دون أن تكتشف حقيقة العلة الكامنة فيها لعدم العلم بها ابتداءاً ، فهذه العوامل ذاتها هي التي مازالت تنخر في جسد الكيان الإسلامي النامي في هذا العصر كما فعلت في كيان الدولة الإسلامية في القديم .

المبحث الأول

إتباع الهوى

الهوى بين اللغة والشرع :

جاء في لسان العرب لابن منظور :
{هوى بالفتح , يهْوى هَوياّ وهُوياّ وهْوياّ وانهوى : سقط من فوق الى أسفل ، واهواه هو : يقال : أهويته إذا ألقيته من فوق ،
وقوله عز وجل : (وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ) يعني مدائن قوم لوط أي أسقطها فَهَوت أي سقطت .

والهوى : مقصور : هوى النفس وإذا أضفته إليك قلت هواي .
... ابن سيده : الهوى : العشق يكون في مداخل الخير والشر وهوى النفس إرادتها والجمع أهواء .
قال اللغويون : الهوى محبة الإنسان للشيء وغلوته على قلبه .
قال تعالى : وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ .

معناها : ونهاها عن شهواتها وماتدعوا إليه من معاصي الله عز وجل وقوله عز وجل : فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ .
قال الفراء : معنى الآية يقول : اجعل افئدة من الناس تريدهم } (1) .

وفي تاج العروس :
(قال ابن سيده : يكون في مداخل الخير والشر .
وقال غيره من تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى ينعت بما يخرج معناه كقولهم هوى حسن وهوى موافق للصواب .
والهوى : إرادة النفس والجمع : أهواء) .

مما تقدم نرى أن مادة (هوى) قد وردت بمعنين أصليين يتفرع عنهما معان أخرى .

أولهما : هوى (منكّر)يعنى السقوط من فوق .
وثانيهما : الهوى (مقصوراً بتعريف الألف واللام) : يعني ميل النفس إلى الشيء محبة ورغبة وإرادة .

وقد ورد الشرع بمثل المعنيين .
ففي الأول :
قال تعالى : وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (2)
وقال تعالى : وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (3) أي أسقط فأهوى .
وقال تعالى : وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ (4) هلك .

وفي الحديث الشريف :
قوله صلى الله عليه وسلم (... يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوى به) (5)

وفي الثاني :

(1) لسان العرب ج 15 ص371 (2) النجم - 1 (3) النجم - 53 (4) طه – 81 (5) مسند الإمام أحمد

قال تعالى : يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ (1)

وقال تعالى : أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا (2)

وقال تعالى : وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ (3)

وقال تعالى : وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١ (4)

وفي الحديث الشريف :
مارواه أحمد بسنده عن أبي برزة قال صلى الله عليه وسلم :
(أنما اخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى) . (5)
وفي مسلم والمسند : **(إلا من أشرب من هواه)** . (6)
وفي الموطأ : **(يبدؤن أعمالهم قبل أهوائهم)** . (7)
وكلا المعنيين متصل بالآخر صلة السبب بالنتيجة .

ففي الحديث روى الدارمي في المقدمة بسنده :
(إنما سموا أصحاب الأهواء لأنهم يهوون في النار) (8)
وفي الأثر عن الشعبي : (إنما سمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه) . (9)

وورد في مفردات القرآن للراغب الأصبهاني :

(الهوى : ميل النفس إلى الشهوة ، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة ، وقيل سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهية ، وفي الآخرة الى الهاوية . والهُويّ سقوط من علو إلى أسفل . وقد عظم الله تعالى ذم اتباع الهوى فقال : أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وقال وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر ثم هوى كل واحد لايتناهى ، فإذا أهوائهم نهاية الضلال والحيرة) . (10)

حقيقة الهوى :

نخلص من ذلك كله في تعريف الهوى إلى أنه :

لغة : هو ميل النفس إلى ماتحبه وترضاه .

شرعاً : هو ميل النفس إلى نيل شهوة تلائم طبعها أو اتباع شبهو توافق عقلها . (11)

يقول الشاطبي:(لذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا اهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الإفتقارإليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم واعتقدوا على آرائهم ، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك ،

---

(1) ص – 26 (2) الفرقان – 43 (3) النجم – 3 (4) النازعات 40،41
(5) مسند احمد ج 4 ص 420 (6) أحمد ج5 / ص 386، ومسلم الإيمان ص 231 (7) ص - 88 (8) ص / 35
(9) ذم الهوى لابن الجوزي وروي مرفوعاً للدارمي في المقدمة . (10)المفردات – 548
(11) مما يجدر ملاحظته في هذا المقام هو ماجرى على أقلام أئمة السلف من اصطلاح (اهل الأهواء والبدع) فقد شاع هذا المصطلح في عهد الصحابة والتابعين وبعد ذلك في الكتب عامة ، فدل ذلك على نوع من التقارن بين الأهواع والبدع وذلك يعني تخصيص لفظ الهوى بأحد معانيه وهو أتباع الشبهات ، أن الهوى يطلق على متابعة النفس على وجه العموم سواء بمعصية أو بدعة . وأما الإصطلاح الدارج في آثار السلف فإننا نلحظ فيه تخصيصاً لمعنى الهوى بما هو مؤد إلى البدعة عامة ، والبدعة تكون نتيجة للأهواء فالذم واقع على السبب أحياناً وعلى النتيجة أحياناً أخرى ، إلا إذا قلنا أن البدع تنشأ عادة من الشبهات والشهوات معاً ، فهنا يكون اصطلاح أهل الأهواء مطابقاً لأهل البدع تماماً .

وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح (1) ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم ، ويدخل في غمارهم من كان منهم يخشى السلاطين لنيل ماعندهم أو طلباً للرئاسة) . (2)

وتفصيل هذا الكلام أن الهوى قسمان :

نيل شهوة (3) أو اتباع شبهة .

فصاحب الشهوة يُتبع نفسه هواها فيلهث وراء مطمع دنيوي أو غرض شخصي كجاه أو مال اومنصب ، فيقدم مااشتهته نفسه على ماشرعه الله ، ويعرض عن الطلب الشرعي إما تأويلاً للحكم الشرعي أو إغضاء عنه وازوراراً عن اتباعه . وهذا القسم أهون القسمين وأظهرهما لصاحبه والناس .

والثاني هو الذي يأتي صاحبه من قبل الشبهات .

والشبه العارض لايلزم أن تكون لادليل عليها البتة ، بل يمكننا أن نتصور اقساماً ثلاثة للشبه يُتبع فيها الهوى ، بالنسبة للدليل الشرعي.

أولها : شبهة لادليل عليها البتة في الشريعة ، وهي تؤدي إلى ماأسماه الشاطبي (البدعة الحقيقية) (4) ومثالها :

ترك الزواج وصيام الدهر وقيام الليل دون النوم ... وهذا النوع يتبع الهوى بإطلاق إذ لادليل في جملة الشرع ولاتفصيله عليه ويظهر هذا القسم في فرقة (الصوفية) خاصة الذين يشرعون لأنفسهم من الدين مالم يأذن به الله .

وثانيهما : شبهة عليها دليل مجمل ولكن ليس عليها دليل مخصوص وهي تؤدي الى ماأسماه الشاطبي (البدعة الإضافية) (4).

فهي تتعلق بالسنة من جهة أن الدليل دل عليها جملة ، وهي تتعلق بالبدعة من جهة أن الدليل لم يدل عليها تفصيلاً .
ومثالها التزام صوم النصف من شعبان .

يقول الشاطبي : (ومن ذلك تخصيص الأيام الفاضلة بأنواع من العبادات التي لم تشرع لها تخصيصاً ، كتخصيص اليوم الفلاني بكذا وكذا من الركعات أو بصدقة كذا وكذا ... فإن ذلك التخصيص والعمل به إذا لم يكن بحكم الوفاق أو بقصد مثله أهل العقل والفراغ والنشاط كان تشريعاً زائداً) .

وثالثهما : الشبهة التي تعرض من قبل المناط - أي تطبيق الواقع على الحكم الشرعي – لامن قبل الدليل ، وهذه كثيراً مايكون عليها دليل شرعي صحيح ، وأنما الأمر فيها أن صاحبها يقدم أمراً شرعياً على أمر شرعي آخرهو اولى منه بالتقدمة ، وأدعى للمصلحة الشرعية وأنسب لمقصد الشريعة دون تمحيص للأدلة ، ولااكتمال القدرة على الترجيح والنظر في الأدلة . ولا يكون ذلك إلا باتباع ماتميل إليه النفس في طبيعتها المركبة ، فإن عند غياب العلم الهادي للحق ، لايكون إلا الهوى المُردي للحق .

وهذا القسم الثالث هو ماسنركز عليه في الأمثلة التي سنوردها بعد – في جانبي العقيدة والدعوة – في موضعها من البحث ، لانتشارها في الواقع الإسلامي المعاصر، إلى جانب ماشاع فيه من انحرافات عن الطريق السوي ، ولندرة من تعرض إليها بالبحث والتفصيل .

وكثيراً ماتعرض الشبهة للعقل ، ولاغضاضة في ذلك فقد كانت الشبهات تعرض على الصحابة رضوان الله عليهم ، ويحدثون بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهديهم إلى الطريق السديد في ذلك الأمر كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(1) المقصود بهم المعتزلة ومن جرى مجراهم في تقديم العقل على الشرع سواءأعلن ذلك كالمعتزلة أو أخفاه كالخوارج والمرجئة . (2) الإعتصام 2 / 176
(3) الشهوة إما محمودة وإما مذمومة ، فالمحمودة هي مأأقرها الشرع وكانت من طريق الحلال كشهوة النكاح ، والمذمومة مالم تكن عن طريق الحلال كالزنا، والشهوة المقصود هنا هي المذمومة . انظر الذريعة إلى مكارم الشريعة / 46 . (4) راجع { الاعتصام } للشاطبي ج 1 / ص 286 وبعدها .

(لايزال الناس يتسألون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله)
واللفظ لمسلم .

فالفرق بين شخص وآخر ينشأ من معالجة الشبهة ومدى تأثيرها عليه .

- فالشبهة التي تصادف نفساً معتدلة متوازنة – لاتميل إلى رأي ولاتتبنى اتجاهاً قبل أن تعرض الأمر على كتاب الله وسنة رسوله لتاخذ منهما مايهديانها الى الحق – لايكون لها تأثير في صاحبها .

- فهو إذن ينفيها عن نفسه بسرعة إن كانت من المتشابهات التي لاسبيل إلى معرفتها وهو مادل عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق .
- وأما أن يفزع إلى العلم ويهتدي بنور الكتاب والسنة في كشف ظلمات الشبهة قبل أن يتغيّم بظلامها على العقل فتمنعه من رؤيت الحق .

- والشبهة التي تصادف نفساً ذات ميل معين أو طابع غلاّب ، يجعلانها تميل إلى مايوافق طبعها وتتحكم في العقل لقوة ذلط الميل أو الطبع وسيطرته والنفوس تختلف في طابعها الأصلي وجبلتها الفطرية .

- فنفس قوية وثابة طموحة تميل إلى العنف وتعشق الصراع .
- ونفس هادئة تؤثر الدعة والإطمئنان على العنف والصراع .
- ونفس ملتوية مقصرة تميل إلى الغموض ولاتقبل الوضوح .
- ونفس متغلّفة شاردة تكره الانضباط وتتفلت من كل قيد .

تتولد الشبهة وتصادف ميل النفس فتدفع العقل إلى إقرارها ، ويقدم الدليل تلو الدليل ، ويؤوّل مايخالفها ، ويرد من الأدلة مايعاكسها ، ثم يدافع عنها اللسان ويتخذها صاحبها علماً يدافع عنه في كل حين ومقام .
وهذا القسم من الهوى هو أخطر القسمين على صاحبه وعلى الناس .
ذلك أن الهوى فيه يتخذ سبيله في النفس والعقل عجباً ، فلا يكاد يدري صاحبه بما هو مقدم عليه من تقديم بين يديّ الله ورسوله ، بل لايخلوا صاحبه من إخلاص في أول أمره ولكن الإخلاص وحده لايكفي بل لابد من العلم ومن التجرد من الهوى والرأي المسبق .

يقول الدكتور جيسون في كتابه (كيف تفكر) :
(وعندما يكون المرء متغرضاً فنادراً مايدرك هو أنه كذلك) (1) .

فغالباً مايكون الهوى - في هذا النوع – خافياً على صاحبه في أول الأمر ، إذ الغالب فيه التكبر عن الاهتداء بآراء الاعلام أو الإقتداء بمن سبقه في العلم والعمل معاً .
وإنما هو يقدم لنفسه مقدمات يجعلها لازمة لايصح للمسلم دينٌ إلا بالسير عليها :

- وجوب اتباع الدليل .
- عدم جواز التقليد .
- ضرورة الإستنباط من الكتاب والسنة فقط ونبذ الآراء .

وكلها حق ولكن أحياناً تؤدي إلى ، فعند التطبيق يظهر الاخلال بمعاميها وخروجها عن المراد منها .

- فاتباع الدليل ينقلب إلى إهدار العلوم الشرعية الخادمة للدخول كالأصول والعربية .

(1) { كيف تفكر} سلسلة الشريط الحريري ، د. جبسون / ص 29 .

- وعدم جواز التقليد يصبح تسفيهاً لآراء العلماء والاعراض عن فتاوى الأئمة ومناهج نظرهم في الإستدلال والفتوى .
- والأخذ من الكتاب والسنة يصير الى الظاهرية في تناول النصوص ومنهج البحث وكثيراً مايظهر لصاحب الهوى – شيئاً فشيئاً- فساد مايذهب إليه ، ويرى نقاط الضعف في بناه وتتضح له الأدلة المعارضة لقوله .

ولكن – وأسفاه – غالباً مايكون قد أشتهرفي الناس بقوله الذي ينصره ، والتف حوله الكثير من الأتباع يتخذونه معلماً وقائداً ، فيكون ذلك مانعاً له من التراجع ، فيزين له الشيطان البقاء على قوله ، وتصرفه كبرياؤه عن الإعتراف بالخطأ ، فتراه يغض النظر عن الأدلة المضادة لقوله ويرمقها من طرف العين ولاتدفعه نفسه إلى دراستها وتفحصها ومعرفة مدلولاتها ، فيتبع هواه وهو عالم بما هو واقع فيه بعد أن كان هواه خافياً عليه وعلى الناس أجمعين .

وهذا هو الداء العضال الذي تعاني منه البنية الإسلامية المعاصرة أيما عناء كما عانى منه المسلمون طوال تاريخهم الطويل .

ولابد لنا من أمثلة نتبع فيها مسارب الهوى من لحظات ميلاده الأولى داخل النفس حتى تصل إلى نهاية المطاف وقد أصبح رأياً يتقلده صاحبه ويدافع عنه بالحق والباطل .

نأخذ مثالاً في مجال الدعوة : تلك النفس القوية العنيفة التي لاترضي إلا بشرعة التدافع والقهر . ثم إن هذه النفس قد صادفت واقعاً بعيداً عن الإسلام ، فهي ترغب في تغييره واستبداله بواقع إسلامي نقّي تكون فيه صلتها بدينها موصولة العرى كما اراد لها ربها أن تكون ن فينشأ في هذه النفس – وفي غفلة من العقل الفاحص المدقق – اتجاه يدفعها إلى الحل العنيف دفعاً ، ويجعلها تقدمه على غيره ابتداءاً . ذلك ولم يعرض على العقل دليل يعد ولم يسع في البحث عن الأمر .

وحين تعرض الأدلة ، ويلتزم العقل الفاحص المدقق بالنظر فيها والبحث عن اصحها ، وأولاها بالأتباع في هذا الواقع المضطرب المائج بشتى العوامل المتشابكة حين يطلب من العقل النظر في الأحكام الشرعية وفي مقتضيات الواقع معاً ليكون حكمه صحيحاً – والفتوى لاتكون حقا إلا أن يعتبر فيها الحكم الشرعي الأصلي ومطابقته للواقع المراد تطبيق الحكم عليه كما نص على ذلك ابن تيمية في الفتاوي – حين يطلب من العقل ذلك نجده وقد غشيت عليه تلك الفطرة الأصيلة في النفس لشدة ميلها إليه وسيطرته عليها ،فتوجهه إلى تقديم ماينا سبه من أدلة شرعية تدل على طلب الجهاد وقتال العدو ومواجهة المشركين، ويزين ذلك للعقل أن القتال أمر مطلوب شرعاً لايشك في ذلك مسلم فهو إذن متبع لأمر شرعي فاين هو من الهوى ؟ بل سواه ممن يعارضه في ذلك هم صاحب الهوى وهو الذي يتعدى نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم !

ولايخفى وجه الحق في هذه المسألة ، إذ أن الفتوى الشرعية الصحيحة يجب أن تدخل في الأعتبار كل العوامل الواقعية السائدة فقد يكون الحكم الشرعي الأصلي هو الجهاد والقتال والمواجهة ولكن ذلك حكم مجرد عن واقعه ، بينما الفتوى المبنية على ذلك الواقع تكون ممارسة طرق اخرى للدعوة تسبق الجهاد وتهيئه للمواجهة .
وما قصدناه من اتباع الهوى واضح في المثال المتقدم بما لايزيد عليه .

- ومثال آخر في مجال العقيدة وكيف تدخلها البدعة من قبل الهوى .

من الناس من يتعرض في مجال الدعوة للابتلاءات والمحن أو من تجري أمامه على مسرح الأحداث الإسلامية مالايوافق مزاجه ، كما حدث في موضوع التحكيم زمن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه .

فنجد أن ذلك إن صادف نفساً هادئة تؤثر الدعة والأطمئنان ، دفعتها إلى محاولة المصالحة مع الواقع ، والإبتعاد عن مخاطر الدعوة المرتقبة ، والتقليل من حجم الخسارة قدر الإمكان ، فنجد أن العقل – لسيطرة النفس عليه وشدة ميلها لهواها – يقبل من الأدلة مايؤيد أن ذلك الواقع إنما هو مجرد واقع إسلامي يحتاج إلى بعض الإصلاح والتقويم ، وإنه لابأس بما عليه الناس في جملتهم ، وإنما هو بعض الإلتزام في هذا الجانب وبعض التقويم في ذلك الجانب فإذا نحن في عصر الخلافة الراشدة مرة أخرى ! وذلك هو منهج التفريط ومدخل (الارجاء) في كل آن .
وإن صادف نفساً جمعت بين القوة والعنف وبين البساطة والسطحية ، دفعتها دفعاً إلى رفض هذا المجتمع جملة برمته ، واستقرت في الوجدان دعوى لادليل عليها بأن ذلك المجتمع خارج عن دين الله – بأفراده وهيئاته - فإنه لايمكن أن تكون مثل

تلك الأحداث في وسط ينتسب فيه أي فرد للإسلام . هكذا دون تفصيل بين الأفراد والهيئات ثم حين يبدأ البحث عن حقيقة الإسلام والأيمان ، وتعرض عليه الأدلة على أختلافها نجده وقد تخير منها مايؤكد المعنى المستقر في نفسه من أن ذنب المسلم كفر ومعصية الله كفر... وهكذا يمضي في تكفير المجتمع والأفراد على حد سواء !وذلك هو منهج الإفراط ومدخل (الخروج) في كل عصر .

وممن أشار إلى تلك المسالك الخفية للهوى في النفس العلامة الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني في كتابه (القائد إلى تصحيح العقائد) قال :

(افرض أنك وقفت على حديثين لاتعرف صحتهما ولاضعفهما أحدهما يوافق قولاً لأمامك ، والآخر يخالفه ، أيكون نظرك فيهما سواء ، لاتبالي أن يصح سمد كل منهما أو يضعف ؟

افرض أن رجلاً تحبه وآخر تبغضه تنازعا فن قضية فاستُفتيت فيها ولاتستحضر حكمها وتريد أن تنظر ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه ؟

افرض أنك وعالماً تحبه وآخر تكرهه افتى كل منكم في قضية واطلعت على فتوى صاحبيك فرأيتهما صواباً، ثم بلغك أن عالماً آخر اعترض على واحدة من تلك الفتاوى وشدد النكير عليها أتكون حالك واحدة سواء كانت هي فتواك أم فتوى صاحبيك أم فتوى مكروهك ؟

فتش نفسك تجدك مبتلى بمعصية أو نقص في الدين ، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشد مما أنت مبتلى به ؟ فهل تجد استشناعك ما هو عليه مساوياً لاستشناعك ماأنت عليه ، وتجد مقتك نفسك مساوياً لمقتك إياه ؟

وبالجملة فمسالك الهوى أكثر من أن تحصى ، وقد جربت نفسي أنني ربما أنظر في القضية زاعماً أنه لاهوى لي ، فتلوح لي فيها معنى ، فأقرره تقريراً يعجبني ، ثم يلوح لي مايخدش في ذلك المعنى ، فأجدني أتبرم بذلك الخادش وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب ، وإنما هذا لأني لما قررت ذاك المعنى أولاً تقريراً أعجبني صرت أهوى صحته ، هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس ، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش ؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش ولكن رجلاً آخر اعترض علي به ؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه ؟) (1) .

ويمكن لنا أن نتبع مثل تلك المداخل النفسية في العديد من الفرق ، لندرك أن نشاتها إنما كانت هوى خفياً استقر قي النفس ، ثم بحث عن دليل صدقه فقدم النتائج على المقدمات ، وقدم هواه على كتاب الله وسنة رسوله رغم دعواه العريضة بالإلتزام بهما ، والموفق من رأى من نفسه ذلك فعالجها قبل أن يستعصي الداء على الدواء . يقول الشاطبي في تقرير ماسبق :

(... وهي أن المبتدع لابد له من تعلق بشبهة دليل ينسبها إلى الشارع ، ويدعي أن ماذكره هو مقصود الشارع ، فصار هواه مقصوداً بدليل شرعي في زعمه ، فكيف يمكنه الخروج عن ذلك وداعي الهوى مستمسك بحسن مايتمسك به ؟ وهو الدليل الشرعي في الجملة .

ومن الدليل على ذلك ماروى الأوزاعي قال : بلغني أن من ابتدع بدعة ضلالة ... ألقى عليه الخشوع والبكاء كي يصطاد به وقال بعض الصحابة : أشد الناس عبادة مفتون ....الى قوله :
(وما ذاك إلا لخفة يجدونها في ذلك الإلتزام ونشاط بداخلهم يستسهلون به الصعب بسبب ماداخل النفس من الهوى ، فأذا بدا للمبتدع ماهو عليه رآه محبوباً عنده لاستبعاده للشهوات – وعمله من جملتها – ورآه موافقاً للدليل عنده ، فما الذي بصره عن الإستمساك به والإزدياد منه ، وهن يرى أن أعماله أفضل من أعمال غيره ، واعتقاداته اوفق وأعلى ؟ أفيفيد البرهان مطلباً ؟

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ (2)

(1) القائد - 26 (2) الاعتصام ج 1 / ص 124 وبعدها

بين الهوى والخطأ والمعصية :

يختلط الأمر على كثير من الإسلاميين في التفرقة بين أمرين لدقة الفرق بين ظاهريهما وهما – اتباع الهوى – والخطأ في الاجتهاد . والفرق بينهما كبيرسواء في المنشأ او النتيجة او العاقبة .

فمنشأ الهوى في النفس هو كما رأينا ، دافع خفي باطن يسبق الدليل ويتقدمه ويدفع العقل إلى اتخاذ خط معين في الإحتجاج بالأدلة موجهاً إياها لخدمة غرضه وهواه .

والخطأ في الإجتهاد ينشأ عن أسباب عديدة (1) :
منها عدم وصول الحديث ال صحيح إلى المجتهد .
أو إخفاء جهة الدلالة في الآية أو الحديث .
أو الخطأ في استنباط العلة وتحديدها أو في تطبيق أحد الأدلة الشرعية كالقياس أو الإستصحاب أو غيرذلك من أوجه الخطأ المحتمل في الإجتهاد .

ومما يلاحظ أن ذلك معتبر عند من بلغ رتبة الأجتهاد ، وحصل العلم المطلوب للتصدي للإفتاء ، أما من لم يحصل العلم اللازم فأخطأ عن جهل فذلك أمر آخر إذ الأمر عنئذ دائر بين احتمالين . فأما أن يعلم الحق ويتبين له الصواب فيعود عن رأيه الذي ذهب إليه حال جهله ، أو أن يصر على رأيه ويغض الطرف عن الأدلة التي تظهر له مما كان غائباً عنه أو ان جهله ، وهي حالة تدل على صدوره عن الهدى في رأيه السابق وأنه اجتمع عليه الجهل والهوى .

فالهوى أمر باطن ولايُستدل عليه إلا بدليل خارجي كأن يعرض على من يظن به الهوى الأدلة الدالة على فساد مذهبه ، فأن أصر على ماهو عليه وأخذ في المراوغة والتأويل فهو صاحب هوى ولاشك .

يقول الشاطبي : (إلا أن هذه الخاصية راجعة في المعرفة بها إلى كل أحد في خاصة نفسه ، لأن اتباع الهوى أمر باطن فلا يعرفه غير صاحبه ، إذا لم يغالط نفسه إلا أن يكون عليها دليل خارجي) (2) .

ففي ظاهر الأمريستوي صاحب الهوى والمخطيء حتى يستدل على الهوى بدليل خارجي كأن تعرض عليه الأدلة الصحيحة ، أو تشيع تلك الأدلة بما لايدع مجالاً في اطلاعه عليها فحيئذ يُعرف أنه صاحب هوى .
فالمجتهد – إذن – لايُقدم بين يديّ الله ورسوله ، ولايسبق إلى فكره ونفسه هوى معين قبل الدليل الشرعي ، وإنما هو راغب في الوصول إلى الحق ، وساع في سبيل ذلك بالطريق الصحيح وإن أخطأ في النظر .

وعن نتيجة كل منهما :

والهوى لاينتج إلا البدعة والتفرق ، والبدعة لايرجع عنها صاحبها ، بل تتمكن من نفسه فلايكاد يكون أمل في العدول عنها حتى وإن ظهر الدليل خلافها ، فإن الكبر واعتياد الرئاسة والتقدم تمنعه من اتباع الحق وترك ماهو فيه من صدارة .

عن يحيى ابن أبي عمرو الشيباني قال:(كان يقال: يأبى الله لصاحب بدعة توبة،ومماانتقل صاحب بدعة إلا إلى ماهو أشرمنها).

ونحوه عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : (ماكان رجل على رأي من البدعة فتركه إلا إلى ما هو أشر منه) .

وخَرج ابن وهب عن عمر ابن عبد العزيز أنه كان يقول:(اثنان لانعاتبهما، صاحب طمع وصاحب هوى ،فأنهما لا ينزعان).

وعن ابن شوذب قال : سمعت عبد الله ابن القاسم يقول : ماكان عبد على هوى تركه الا إلى ماهو شر منه ....(3) .

وأما المخطيء في اجتهاده فالظن به أنه يرجع الى الحق عند ظهورالدليل ووضوحه لأنه لم يصدرعن رأي ناسخ في نفسه وعقله ، بل صدر عن اجتهاد في الأدلة التي لديه وكان خطؤه فيها من قِبل نظره لامن قِبل هواه .

---

(1) راجع رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية فهو غاية في الفائدة في هذا الباب .
(2) الاعتصام ج 2 / ص 235 والخاصية المقصودة هي اتباع الهوى
(3) راجع الاعتصام ج 1 / ص 123

قال الشافعي : (الحديث مذهبي فإذا صح الحديث فاضربوا بمذهبي عرض الحائط) وصح مثل ذلك عن بقية الأئمة الأعلام .

وأما عن عاقبة كل منهما :

- فإن صاحب الهوى لا يقبل منه عمل لقوله صلى الله عليه وسلم : **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ)** (1) .
- كذلك فإنه يزداد من الله بعداً .

روي عن الحسن انه قال : صاحب البدعة مايزداد من الله اجتهاداً صياماً وصلاة إلا ازداد من الله بعداً .

- كذلك فإنه يخشى الهوى المؤدي للبدعة مانع من شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والبعد عن حوضه .
- كذلك فإنه يخشى على صاحبه سوء العاقبة ، ويكون ممن يسوّد وجوههم يوم القيامة . حكى عياض عن مالك من رواية ابن نافع عنه قال :
لو أن العبد ارتكب الكبائر كلها دون الإشراك بالله شيئاً ثم نجا من هذه الأهواء لرجوت أن يكون في أعلى درجات الفردوس ، لأن كل كبيرة بين العبد وربه هو منها على رجاء ، وكل هوى ليس منه على رجاء إنما يهوي بصاحبه في نار جهنم .

- كذلك يتبرأ منه الله ورسوله والمؤمنون . قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾ (2) .
وعن ابن عمر : إذا لقيت اولئك فأخبرهم أني منهم وأنهم براء مني .
وجاء عن الحسن : لاتجالس صاحب البدعة فإنه يمرض قلبك .

- كذلك فإن على متبع الهوى المؤدي للبدعة إثم من عمل بقوله واتبعه إلى يوم القيامة لقوله تعالى :
﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ ﴾ (3) .
إلى غير ذلك من الآثار السيئة التي تعود على صاحب الهوى في الدنيا والآخرة .

وأما المجتهد المخطىء فإنه مأجور مثاب على اجتهاده كما في الحديث : (**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر**) (4) ، فالبون بينهما شائع وليرجع كل إلى نفسه حذر العاقبة .

كذلك فإن صاحب المعصية خلاف القسمين : صاحب الهوى والمخطىء في اجتهاده .

فصاحب المعصية وإن صدرعن هوى في وفسه لتحقيق شهوة ، إلا أنه لم يفتعل دليلاً يقيم به الحجة على صحة فعله خلاف صاحب الهوى .

وكذلك هو وان يطلب دليلاً على صحة فعله ، فإنه عارف بموطن الحق والصواب خلاف المخطىء في اجتهاده .

ومن الأهمية بمكان التمييز بين كل من الأنواع الثلاثة السابقة الذكر لمن يتصدى للدعوة بوجه خاص ليكون علة بينة من أمره فيعامل كلاً بما يستحقه ، ويعالج كلاً بما يليق له من دواء .

ونصل إلى الضوابط التي يستطيع المسلم من خلالها أن يتحقق من بعده عن الهوى أو يتّقي الوقوع في مهاويه ، او يستنفذ نفسه منه إن كان قد ابتلى منه بشيء من التفصيل لكل منها على حدة حسب مايقتضيه الموضع وهي :

1- اتباع الكتاب والسنة .

2- اتباع منهج السلف الصالح .

3 - اعتبار المتغيرات الواقعية .

4- التقوى والأخلاص .

---

(1) متفق عليه .
(2) الأنعام - 159
(3) النحل - 25
(4) جامع الأصول 171/10 وأخرجه البخاري ومسلم وزاد في روايته الترمذي (فله أجر واحد) .

أولاً ـ اتباع الكتاب والسنة :

كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هما مصدرا التلقي للمسلم في حياته كلها . وهما يشكلان القاعدة الرئيسية التي يقوم عليها التشريع الإسلامي في كل جوانبه ونواحيه .

ويقصد بدليل الكتاب الآية القرآنية .
ودليل السنة الحديث الشريف بمختلف درجاته المتفق على العمل بها .

والناس في الأتباع قسمان (1) لاثالث لهما :

أولهما من اتبع الشرع ـ كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ـ وفيه الهدى كله والخير كله .

قال صلى الله عليه وسلم : **(تركت فيكم ماان تمسكتم به لن تضلوا بعدي إبداً كتاب الله وسنة رسوله)** (2) .

ثانيهما : من اتبع العقل والتزم بمايؤديه اليه .

والعقل إما أن يكون مدفوعاً بالهوى ، وهو ماتكلمنا عن أصله فيما سبق وبَيّن لنا مافيه من مجانبة للحق واضلال للخلق .

وإما ان يكون مرتكناً على وضع مقدمات لازمة والبناء عليها حسب الترتيب الذي يؤديه المنطق العقلي ، ثم التزام ماينتج عم ذلك من نتائج دون اهتداء بوحي أو رجوع لشرع .

ومن هنا ضل من ضل من أصحاب الفرق التي اتخذت العقل شعاراً وجعلته إزاراً ـ كالمعتزلة قديماً وبعض من أُطلق عليهم (المفكرون) حديثاً ـ وهو شعار خذاع وإزار خلق بال ، إن رفعه من لا يفقه أو ارتداه من ليس له بأهل .

ونحن لا ننكر أن الله تعالى قد شرف الإنسان بالعقل ، وميزه على سائر الكائنات به ولذلك حمله الأمانة بعد أن عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان .

ولاننكر أن للعقل دوراً أساسياً في الإستدلال بآيات الله تعالى في الكون والإنسان وإليه نبه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (3)

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

كما أنه بالعقل يُستدل علىصحة النبوة وصدق الوحي وضرورتهما للخلق ـ كما هو محققوا أهل السنة والجماعة ـ (5).

ولاننكر أنه بالعقل يدرك الأنسان حكن التشريع وأسرار التكليف وعلل ومصالح الأحكام ، فيعترف بقدر الوحي وعلوّ الشريعة ويبنى بعد ذلك مايمكن من الأحكام بالإجتهاد معتمداً على ما قرره الوحي من قواعد وطرق للإستدلال وعلل ومصالح للأحكام وتعرف عليها الإنسان بعقله ونظره .

ولاننكر أن العقل هو مناط التكليف الذي بغيابه يرتفع التكليف عن الإنسان فلا يتعرض لحساب – ثواب أو عقاب – حتى يعود إليه العقل ، سواء كان غيابه جزئياً بالنوم أو الإغماء أو كلياً بالجنون مثلاً ، فيفتح الملكان السجل ويأخذان في التسجيل وهو مدلول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(1) واتباع الحس والتجربة لم يذكره قسماً منفصلاً لأن مايؤديه الحس والتجربة يعرض على العقل ليستنبط منه القواعد العامة ، كما أن معطيات الحس والتجربة مختصة في أغلبها بالأمور الطبيعية فلا مدخل لها هنا . (1)

(2) جامع الأصول 1 / 277 وقال المحقق في الهامش أخرجه مالك في الموطأ بلاغا ويشهد له حديث ابن عباس عن الحاكم بسند حسن .

(3) آل عمران - 190 (4) الرعد -4 / النحل -12 / الروم- 24 (5)راجع ابن تيمية مجموعة الفتاوي ج 13/ص 137 كمثال

(رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل) (1) .
بل إن هدم الأدلة العقلية مطلقاً هو هدم للشريعة وإهدار للدين من أساسه ، بسبب ماتقدم ذكره مما بناه الله تعالى من استدلالات في القرآن على صدق الوحي والنبوة والآيات المبثوثة ، يقول ابن تيمية في الفتاوي :

(العلوم ثلاثة اقسام : منها مالايعلم إلا بالأدلة العقلية ، وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن وأرشد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول ، فإن من الناس من يذهل عن هذا ، فمنهم من يقدح في الدلائل العقلية مطلقاً لأنه قد صار في ذهنه أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه من أحدثه من المتكلمين)(2) .

لاننكر للعقل كل هذه المكانة الرفيعة ، ولكن قوماً تجاوزوا تلك الحدود كلها فحكموه فيما لايقدر عليه (3)، إذ جعلوه ينظر نظرة مستقلة في قواعد الدين ومصالح الدنيا ، فما وصل إليه عرضوه على الشرع ، فأن وافق الشرع فيها ونعمت وكان العقل مثبتاً لما جاء به التنزيل ، وإن خالف الشرع قُدم العقل وأطرح الشرع إما بالتأويل أو التوقف أو الإنكار، ولاندري ماهي قيمة الشرع عند هولأء إن كان في حالة الموافقة والمخالفة للشرع فالعقل مقدم عليه !

تلك هي المجاوزة ، وهذا هو الإفراط والطغيان ، فقد اتخذ العقل ميزاناً لأمور هو أعجز مايكون عن أدراك تفصيلاتها وتحديد صفة حقائقها مستقلاً عن وحي السماء .

وكيف للعقل أن يدرك - وحده - ماتصف الله يبحانه به من صفات الكمال ونعوت الجلال وكيف للعقل أن يدرك - وحده - حقائق مايلقاه الإنسان في قبره أو في يوم بعثه وعرضه بل كيف للعقل أن يدرك - وحده - وجوه المصالح والمفاسد فيما يعرض عليه من أمور الدنيا ومصالح الناس على شدة التشابك والإختلاف بين تلك المصالح فيما هو عام منها او خاص ، وفيما هو موقوف بزمان أو مطلق عن قيود الزمان ، وفيما يخص نوعي البشرية رجالاً وإناثاً !؟

ثم كيف لنا أن ندرك – بوجه قاطع – تخلص العقل من جرثومة الهوى التي تحدثنا مع خفائها ودقتها ، وهو الضعيف - وحده - أمام الشهوة والغريزة إن لم يستند إلى توفيق الله وهدايته ؟

ثانياً - اتباع منهج السلف في النظر والأستدلال :

عرفنا فيما تقدم أن دليل المسلم إلى الأحكام الشرعية كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد اختط لنا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف أمتنا الصالح منهجاً مضبوطاً محدوداً في كيفية الإستدلال والإستنباط من دليلي الكتاب والسنة ، وطريقاً للنظر فيما ورد لنا من (نصوص) قرآنية أو حديثية .

وقد خالف أهل الأهواء ذلك المنهج في النظر والإستدلال . وسنذكر – بأيجاز شديد – طرق الزائغين في النظر للأدلة لنتعرف من خلالها على طرق أهل الحق في النظر والإستدلال ، مستندين في ذلك بما اتبعه الشاطبي في الإعتصام فنقول من طرق الزائغين في النظر للنصوص :

1- اتباع المتشابه وعدم رده الى المحكم:

والمحكم (4)هو الواضح البيّن الذي لا يحتاج في فهمه إلى ما سواه ، والمتشابه هو مااشتبه على العقل فهمه واحتاج الى غيره من الأدلة لشرحه فمن المتشابه مالاسبيل إلى فهمه بالعقل كأوائل السور : فهذا يوكل علمه الى الله تعالى ، ومن المتشابه – حسب اصطلاح السلف فيه – العام والمطلق والمجمل والمنسوخ (5).

---

(1) رواه أبو داود 4 / 560
(2) مجموع الفتاوي ج 13 / ص 137 ، ويراجع كذلك حجة الله البالغة للهلوي ص9.
(3) فمنهج السلف كما قرره ابن تيمية – فيما يقوله أبو زهرة : (هذا هو منهاجهم ، وهو يجعل العقل سائراً وراء النقل يفرزه ويقويه بالإستدلال ، بل يقرب معاني النصوص) تاريخ المذاهب الأسلامية – أبن زهرة /189 – دار الفكر .
(4) المصدر السابق / ص 156 وص170 وص 184 حسب الترتيب
(5) راجع أصول الفقة لأبي زهرة / ص 123

فالعام يُرَدّ إلى الأحكام باعتبار المخصص له .
والمطلق يُرَدّ الى الأحكام باعتبار المقيد له .
والمجمل يُرَدّ الى الأحكام باعتبار المبيّن له .
والمنسوخ يُرَدّ الى الأحكام باعتبار الناسخ له . (1)

فشيمة أهل الأهواء اتباع المتشابه – في أي من صوره – دون رده إلى المحكم كما قال الله تعالى

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ (2) .

2- عدم الجمع بين أطراف الأدلة :

وذلك يعني النظر إلى مجموعة من الأدلة لتؤدي إلى طرف ما ، مع غض النظر عن أدلة أخرى يمكن بالجمع بينهما أن يظهر الحكم العدل في الأمر .

فالشريعة – كما يقول الشاطبي – (مامثلها إلا مثل الإنسان الصحيح السوي ، فكما أن الإنسان لايكون إنساناً حتى يُستنطق فلا ينطق باليد وحدها ولا بالرجل وحدها ولابالرأس وحده ولا باللسان وحده ، بل بجملته التي سمي بها إنساناً . كذلك الشريعة لا يطلب منها الحكم على حقيقة الإستنباط الإ بجملتها ، لامن دليل منها أيّ دليل كان ، وإن ظهر لبادي الرأي نطق ذلك الدليل .... فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضاً كأعضاءالإنسان إذا صورت صورة مثمرة .

وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما أي دليل كان عفواً وأخذاً أولياً ، وان كان مايعارضه من كلي أو جزئي . فكأن العضو الواحد لايعطي في مفهوم أحكام الشريعة حكماً حقيقياً . فمتبعه متبع متشابه ولايتبعه إلا من في قلبه زيغ كما شهد الله به

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا (3)) .

ومثال ذلك مافعلته المرجئة ، فقد اعتمدوا على أحاديث الشفاعة وماورد فيه (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) وغيرها من أحاديث الرجاء ، ولم يعتبروا من الأحاديث مادل على ضرورة العمل وترتب الثواب عليه .

يقول ابن تيمية : (وأكثر ما يكون ذلك لوقوع المنازعة في الشيء قبل إحكامه وجميع حواشيه وأطرافه) (4) .

3 – الإحتجاج بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة :

وتلك هي طريقة المبتدعة وأهل الأهواء ، وهم في المقابل يردون الكثير مما صح من الأحاديث المنقولة بنقل العدول الثقات .

ومن أمثلة ذلك مافعلته الصوفية في حديث النصف من شعبان .

يقول رشيد رضا في تعليقه على ماذكره الشاطبي من أن صيام ليلة النصف من شعبان وقيامها من البدعة : هذا هو الصواب ولا يغترن أحد بترغيب الخطباء الجاهلين في ذلك ولا بالحديث الذي يذكرونه على منابرهم وهو (إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصومةا نهارها ، فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا فيقول : ألا من مستغفر فأغفر له ، ألا من مسترزق فأرزقه ،ألا مبتلى فأعافيه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر) فإن هذا حديث واه أو موضوع رواه ابن ماجه وعبد الرزاق عن أبي بكر ابن عبد الله ابن أبي سبرة ، وقد قال فيه ابن معين والإمام أحمد أنه يضع الحديث) (5) .
ومثل حديث تواجد الرسول صلى الله عليه وسلم عند السماع حتى سقط رداؤه وهذا حديث واه ولا أصل له .

وفي المقابل غلت المعتزلة في ردّ الأحاديث الصحيحة بحجة أنها لاتعقل مثل إثبات الصراط والميزان والحوض ورؤية الباري في الآخرة . وقد تتشبث بما روي من أحاديث عن العقل وأنه هو الحكم الأول والأخير وكلها أحاديث غير صحيحة .

---

(1) راجع رسالة الأكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية في مجموعة الفتاوي ج13 / 270 وبعدها ففيها فائدة جمة وكذلك الأعتصام ج1 / ص 239
(2) آل عمران - 7 (3) الاعتصام للشاطبي ج 1 / ص 244 وبعدها (4) اقتضاء الصراط المستقيم / 43 (5) هامش الاعتصام 1/ 39

4 - عدم رد الفروع الجزئية إلى القواعد الكلية :

فمما لاشك فيه أن الشريعة تقوم على قواعد كلية عامة معتبرة في كل الفروع التي هي الأحكام التفصيلية للشريعة .

وقد بين الأئمة – من مختلف مذاهب الفقه – تلك القواعد العامة في بعض ماكتبوه – إذ أن ذلك لايختلف باختلاف المذاهب الفقهية – ومن أمثال ذلك الأشباه والنظائر للسيوطي ومثله لابن نجيم الحنفي ، وما تفرق منها في كتابات ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله .

وعدم النظرفي القواعد الكلية عند اعتبار الحكم الجزئي يؤدي إلى خلل كبير في الفتوى . فالشريعة أشبه بالبستان المتعدد الشجر ، كل شجرة لها جذر ضارب في الأرض وفروع وثمار طازجة في الهواء ، ومهما تعدت الفروع والثمار فإنها ترتد إلى جذر واحد تقوم عليه وتستمد منه . وتلك الجذور الضاربة في الأرض هي القواعد الكلية التي يقوم عليها بناء الشريعة .

مثال : إن اليقين لايرفع بالشك ، ولكن بيقين مثله .

ومن فروع هذه القاعدة : أن من يتقين أنه قد توضأ للصلاة ثم شك بعدها لعله نقض هذا الوضوء أم لا فالأصل أن يبني الوضوء لأنه متيقن ونقضه مشكوك فيه إلا إن أراد الاحتياط فيعيد الوضوء ، ولكن لايلزمه ذلك وجوباً .

مثال آخر : إن الضرر يزال وهو قاعدة عامة مضطردة في الشرع ومن فروعها : الرد بالعيب ، والحجر بأنواعه وأحكام الشفعة وغيرها من أبواب الفقه .

وقد بني عليها قاعدة أخرى هامة وهي أن الضرورات تبيح المحظورات .

وغير ذلك من قواعد كلية كقاعدة رفع الحرج ، وقاعدة أن الأصل في الأشياء الاباحة وأن الأصل في الابضاع التحريم .. (1) .

وطريق الزائغين هو النظر إلى كل فرع على حدة دون الجوع إلى القاعدة التي بني عليها منع التقارب والخلاف المنزه عن الشريعة بنص كتاب الله في قوله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (2) .

ومما لابد من الإشارة اليه هنا في قضية اتباع السلف الصالح أن الأحاديث قد نصت على افضلية القرون الثلاثة الأولى ومن ذلك مارواه مسلم في صحيحه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(**أفضل القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**) .

ففضل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فضل منصوص عليه ، ولاحجة لمن يتنكب عن طريقهم السوي ، والاهتداء بأقوالهم وفتاواهم في مختلف مجالات الحياة ،والرجوع إلى تلك الأقوال والفتاوى ليس تقليداً كما يزعم فروخ الخوارج في هذا العصر، بل هو محض اتباع السنة والعمل بالحديث ، ودليل صحة الفهم وضابط من ضوابط السلامة إذ هم الأقرب من عهد النبوة المشرق المفعم بالإيمان ، وهم أهل اللغة الذين استقامت ألسنتهم في عهد قوة اللغة والعناية بها وهم المجاهدون العاملون العالمون الذين تربوا على يد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم إن كانوا من الصحابة أو على إيدي الصحابة إو كانوا من التابعين ، أو على أيدي التابعين إن كانوا من تابعيهم ، فهو فضل من فضل من فضل ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ (3) .

---

(1) يراجع الأشباه والنظائر للسيوطي والنظائر للسيوطي الضافعي وابن نجيم الحنفي المصري .
يقول ابن تيمية : (ونحن نذكر قاعدة جامعة في هذا الباب لهم ولسائر الأمة فنقول : لابد أن يكون مع الأتسان أصول كلية يرد أليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت ، وإلا فيبقى في كذب وجهل بالجزئيات ، وجهل وظلم في الكليات فيتولد فساد عظيم) المنتقى من منهاج اغعتدال / ص 320 .
يرجع في ضبط هذا الأمر (وهو الجزئي والكلي) غللى الموافقات ج 3 / ص 260 وبعدها كتاب الأدلة .
(2) النساء - 82 (3) الجمعة - 4

ثالثاً : اعتبار المتغيرات الواقعية :

الإسلام دين يقوم على الواقعية ، وهي خصيصة هامة من خصائصه . والواقعية تعني أنه دين لايتعامل مع فروض نظرية مجردة ، أو أمور خيالية بعيدة عن التطبيق في أرض الواقع . بل يتعامل – في جوانب الحياة التي يتناولها من عقيدة ومعاملات بشرية في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع – مع الانسان بكل مافيه من قوة وضعف ، معتبراً قدراته التي خلقها الله سبحانه منزل الشرع .

وحقيقة أن الله سبحانه هو خالق الناس ، وهو كذلك منزل الشرع الذي ينظم حياة الناس ، تفرض أن تكون أحكام الشرع متسقة مع القدرات المخلوقة في الإنسان فتعالج نواحي الضعف فيه ، وتلبي حاجات الغريزة المركوزة في فطرته ، وتسمو بنواحي الرقي والقوة التي يتمتع بها سواء في الروح أو البدن .

يقول الشهيد سيد قطب في (خصائص التصور الإسلامي) :

(والخاصية السادسة من خصائص التصور الإسلامي هي الواقعية .....
فهذا تصور يتعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود المستيقن والأثر الواقعي الإيجابي لامع تصورات عقلية مجردة ، ولامع مثاليات لامقابل لها في عالم الواقع أو لاوجود لها في عالم الواقع) (1) .

ومن هذا المنطلق ذاته كانت الفتاوي الشرعية تبنى على أمرين معاً :

1- الحكم الشرعي الأصلي .
2- الواقع المراد تطبيق الحكم الشرعي عليه وهو ما يسميه علماء الأصول (تحقيق المناط) .

وكمثال فإن حكم الخمر التحريم وهذا حكم أصلي . فإذا وجدنا مشروباً ما وسأل احد المسلمين عن حكم تناوله وجب على المفتي أن يتعرف على نوع المشروب في الكأس فإن كان خمراً أفتى بالتحريم .

وكذلك شرط الله سبحانه العدالة في الشهود ولكنه لم يعيّن فلاناً بعينه هل هو عدل أم لا . لذلك وجب على القاضي أن يتحقق من عدالة الشاهد بعينه حتى يمكن قبول شهادته (2) .

وهذا الأمر – وهو تحديح الواقع تحديداً دقيقاً – يتوجب على من تصدى للإفتاء في أي أمر من أمور المسلمين أن يفطن إليه ، وأن يراعيه مراعاة تامة .

فأن من أدرك حكم الله سبحانه ولم يدرك الواقع المراد التطبيق عليه فقد أخطأ الفتوى ومن أدرك حقائق الواقع المعروض عليه ولم يعرف حكم الله سبحانه في أمثالها فقد أخطأ الفتوى ولذلك قال العلماء بتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال (3) .

وعدم تطبيق الحكم على واقعه الصحيح هو من طرق الأهواء ، بل من تحريف الكلم عن مواضعه .

يقول الشاطبي : (تحريف الأدلة عن مواضعها ، أن يرد الدليل على مناط ، فيصرف عن ذلك المناط الى أمر آخر موهماً أن المناطين واحد ، وهو من خفيّات تحريف الكلم من مواضعه والعياذ بالله .

ويغلب على الظن أن من أقر بالإسلام ويذم تحريف الكلم عن مواضعه ، لايلجأ إليه صراحاً إلا مع اشتباه يعرض له ، أو جهل يصده عن الحق ، مع هوى يحميه عن أخذ الدليل مأخذه فيكون بذلك السبب مبتدعاً (4) .

---

(1) خصائص التصور : سيد قطب – ص 192
(2) راجع ابن تيمية : مجموعة الفتاوي 13 / 249
(3) راجع ابن القيم في اعلان الموقعين / ج 3
(4) الاعتصام للشاطبي 1 / 249

والظن بمن وقع في مثل هذا لاشتباه يعرض له ، أنه يرجع عنه عند بيان الدليل ، وأن المناطين مختلفين والواقعين متغايران فإن أبى فهو الجهل والهوى المؤدي للبدعة .

فالواجب الشرعي للمسلم القوي المتمكن إزاء قوى الشرك والطغيان ، خلاف واجبه الشرعي في حالة ضعفه وقلة أنصاره . وواجب المسلم إزاء الطغيان في عصر من العصور أو بلد من البلدان خلاف واجبه في عصر آخر أو بلد آخر .

وحيثما يتغير واقع المسلم – لأي سبب من الأسباب – يكون واجبه مكافئا لواقعه الجديد ومتطلباته . ومن هنا قال العلماء إن تحقيق المناط -وهو تنزيل الحكم على الواقع واستنباط الفتوى - هو صورة من الإجتهاد الشرعي لاتنقطع حتى نهاية الدنيا . (1)

ويبرز من خلال هذه النقطة الفائدة العظمى التي يجنيها المسلمون من دراسة الأمر الواقع – بكل ناحية من نواحيه – دراسة تامة واعية مبنية على أسس سليمة ، إن أرادوا أن يقيموا أمر الله بينهم في كل أمر من أمورهم ، وإلا فهو التخبط والضياع كذلك يبرز مدى الخطأ الذي يرتكبه من تصدر للأفتاء في شؤون المسلمين وشؤون الدعوة على حد سواء ، ولم يتحقق بكل ما ينبني عليه من نتائج بالنسبة للأفراد أو المجتمعات تحققاً تاماً .

بل إن تحديد حجم ذلك الواقع المعادي – أو الواقع المؤيد على السواء – من عوامل صحة الفتوى ودقة تحديث الطريق ، وسرعة الوصول للهدف ، تماماً كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق حين اختار البقاء في المدينة وحفر الخندق حولها كأسلوب بديل للأسلوب المعتاد في المواجهة آنذاك ، لمّا عرف حجم العدو الزاحف إليه ، فكان أسلوبه مكافئاً للواقع الزاثل أمامه دون تهويل أو تصغير .

رابعاً : التقوى والأخلاص

ذلك أن من اتقى الله وأخلص النية له سبحانه ، هداه الله إلى الحق ، وأنار طريقه إليه وأرشده إلى الهدى والصواب بفضل منه ورحمة وليس فقة من أتقى وأصلح وأخلص كفقه من كان علمه عن جفاف قلب أو سوء طوية .

قال تعالى ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ (2)

وقال تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ ﴾ (3)

وقال تعالى ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (4)

ولانعني بالتقوى والإخلاص كثرة العبادة ، فإن الخوارج كانوا أكثر الناس عبادة ولكنهم كلاب أهل النار وقد صح فيهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(... تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم الى صيامهم يقرؤون القرآن لايتجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)** .

بل المقصود هو ذلك النورالذي يقذفه الله في قلب العبد ، إذا علم فيه من معاني الخوف والتوكل والرجاء والمحبة لله سبحانه ، وبهذا النور ينكشف أمام العبد وجه الحق في المسألة بمجرد رؤية الدليل ، فيهتدي حيث يضطرب الناس ، ويعرف الدليل الصحيح حيث يشتبه الأمر على الناس ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء .

يقول الشاطبي في شرح هذا المعنى : (... وهو في الحقيقة ناشيء عن التقوى المذكورة في قوله تعالى

﴿ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (4) ، وقد يعبرعنه بالحكمة ويشير إليها قوله تعالى

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (5) .

---

(1) راجع الموافقات ج 3 / ص 89 كتاب الاجتهاد المسألة الأولى .
(2) الحديد- 28
(3) الأنعام- 122
(4) الانفال - 29
(5) البقرة - 269

وقال مالك : إن الحكمة مسحة مَلَك على قلب العبد .

وقال أيضاً: يقع بقلبي أن الحكمة الفقه في دين الله ، وأمر يدخله الله القلوب من رحمته وفضله (1) .

وهذا الأمر – الذي أسماه الشاطبي الخاص – هو مايستدل به الفقيه بنورمن الله – إن اتقى وأخلص – إلى الحق فيتبعه ، ويظهر له موطن الهوى فيتجنبه .

(1) الشاطبي : الموافقات 4 /97 .

المبحث الثاني

التعصب

وهو شيمة من شيم الضعف ، وخلّة من خلل الجهل يبتلى بها الإنسان فتعمى بصره وتغشي علة عقله ، فلا يرى حسناً إلا ماحسن في رأيه ، ولا صواباً إلا ماذهب إليه أو من تعصب له .

وقد نسبناه للضعف لأن النفس القوية لاتهاب ولاتحذر ولاتشفق إلا من الحق ، والتشبث برأي أو اتجاه – واعتبار كل ماعداه باطلاً لايستحق أن ينظر فيه أو أن يستمع له – لايكون إلا من هيبة الرأي المخالف وحذراً من أن يظهر فيه بعض الحق مما ينقص مذهبها ، وإشفاق على النفس أو يبني خطأها فيما تقتنعه .

ولذلك نرى أن التعصب غالباً مايندثر بداء القوة يظهر فيه . ويستبد بالإشتمال عليه ليخفي من ورائه ضعفاً متوازياً أمام الحق، وحذراً وإشفاقاً من المخالفة والخطأ .

فالمتعصب قوي في ظاهره بما يبديه من تشبث برأيه ورفض قاطع لما يخالفه دون تمحيص ولاروية ، ولكنه – في حقيقة أمره – ضعيف بخوفه وهيبته وإشفاقه .

ونسيناه للجهل لأن العقل العالم المدقق لايفتأ في البحث عن الحق والصواب ومراجعة نفسه ، وترديد المظر في أقواله ومذاهبه ، لعلمه بأن النقص هي ميزة البشر الأولى التي جُبل عليها ، وأن الكمال لله تعالى وحده والعصمة لرسوله صلى الله عليه وسلم ولذلك قيل : (لايزال المرء عالماً حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل) .

والتعصب فرع العصمة الذي لاينفك عنه ، وادعاء العصمة فيه مافيه من خطل في الرأي ومجانبة للحق ، وعنه نشأت فرق كالرافضة خرجت عن خط الإسلام السوي المستقيم الذي يضع الإنسان – كل انسان – في موضعه الصحيح من النقص والكمال ومن الخطأ والصواب .

فالضعف والجهل – إذن – هما جناحا التعصب : ضعف النفس وجهل العقل (1) .

والتعصب عند الإطلاق ظاهرة ذميمة لاتؤدي إلا إلى التفرق والتعادي (وهو من خصال أهل الكتاب التي تكون في هذه الأمة .
قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (2) فوصف اليهود بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور النبي فلما جاءهم من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له ، وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة في العلم أو الدين أو إلى رئيس معظم عندهم ، فأنهم لايقبلون من الدين – لافقهاً ولارواية – إلا ماجاءت به طائفتهم) (3) .
ويقابل التعصب الثبات على الحق والتمسك به ، وقد يتقارب المعنيان فلا يتميزا إلا في نظر المدقق الفاحص ، وقد يخلط بينهما، فنرى البعض يمدحون التعصب على أنه دلالة قوة إيمان ورسوخ عقيدة ، بينما نرى البعض الآخر يذمون المتمسك بالحق الثابت عليه ويرمونه بالجمود والتعصب ، والحق أن البون شاسع بين المعنين في المنشأ والطريق والثمرة .
فمنشأ التعصب ضعف في النفس وجهل في العقل ، بينما التمسك بالحق ينشأ من القناعة بالرأي ووضوح الدليل .

وطريق المتعصب هو الصد عن معرفة دليل المخالف أوالإستماع إليه أو اعتباره في النظر بأي وجه من الإعتبار .

بينما طريق المتمسك بالحق المناقشة الحرة والإستماع إلى دليل المخالف برحابة صدر واتساع أفق ، والرد المشفق الذي يرجو هدى المخالف ولاينتظر سقطته .
وثمرة التعصب الإختلاف والفرقة والتباغض ، وثمرة التمسك بالحق اجتماع المؤالفين عليه واتحادهم ومراجعة المخالفين لمنهاجهم ، ثم نورفي القلب يضيء لصاحبه الطريق ويهديه الصراط المستقيم .

---

(1) والجهل المقصود هنا ليس بمعنى قلة التحصيل فقط بل بمعنى قلة التحصيل عموماً او التحصيل في أتجاه واحد أو ضيق الأفق وقصر النظر ... وكلها جهل
(2) البقرة – 91 (3) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم – 8

كما أن لكل من التعصب والتمسك بالحق مجالاً وحدوداً .

ففي أصول الدين وقواعده الثابتة المتواترة وماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لامجال لتهاون أو تسامح ، بل الإعتصام بالحق إلى أقصى حدوده هو المطلوب المحمود – أما فيما يسوغ فيه الخلاف من مسائل الفقه التي تحتمل تعدد اوجه النظر – فأن الثبات على الحق (1) لاينافي التسامح أو المؤالفة أو احترام اجتهاد الغير .

يعرف الشوكاني التعصب فيقول : (بأن تجعل مايصدر عنه {الإمام المتبع} من الرأي ويروي له من الإجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد ، فأنك إن فعلت ذلك كنت قد جعلته شارعاً لامتشرعاً ، ومكلِفاً لامكلفاً) (2) .

وما قصده الشوكاني هو المتعصب لرأي إمام مجتهد أو عالم من علماء الشريعة .

فالمتعصب إما أن يتعصب لرأي إمام مجتهد أو عالم فقيه .
أو أن يتعصب لرأي من يحسبه كذلك وهو ليس بذاك .
أو أن يتعصب لرأيه الشخصي ونظره الذاتي .

والثلاثة كلها سوء ولاتؤدي إلا إلى آفات التعصب البغيضة ، فالمسلم الذي ليس عنده قدرة علر البحث والنظر في الأدلة الشرعية وليس مؤهلاً لذلك فهذا إن سأل عالماً تقياً وقلده أو اتبعه فيما أجاب به هذا العالم ، فلا بأس عليه ، ولكن إن خرج به ذلك إلى التعصب وتسفيه آراء الآخرين المستندة إلى الكتاب والسنة أو إلى مذهب لأحد الأئمة الأعلام ، فتلك هي الآفة التي يجب الحذر منها، فالعالم المُقلد ليس بمعصوم، بل إن كبار الأئمة قد حذروا الناس من ذلك وحثوهم على ألا يتعصبوا لأقوالهم، ولكن المُقلد قد يحيك في نفس أحدهم أن كلام إمامه خطأ ولكنه يتوقف في رد ذلك لأعتقاده أن إمامه أكمل منه علماً وعقلاً ودیناً ، وهذا مع علمه أن إمامه ليس بمعصوم (3) .
أبان شيخ الإسلام عن أهم حجة يتمسك بها المتعصب في مواجهة الحق وهي اعتقاده بكمال إمامه فيتخذ خطأه صواباً ، وينحرف عن الطريق السوي دون أن يدري ، (فإن الحق يستحيل أن يكون وقفاً على فئة معينة دون غيرها والمنصف من دقق في المدارك غاية التدقيق) (4) .

أما من تمسك برأيه الشخصي واجتهاده فهو بين أمرين :
- إما أن يكون من أهل الإجتهاد والذين تحققت فيهم الشروط المعروفة عند العلماء (5) ، فهذا غير ملوم ولا مذموم بل الواجب عليه أن يتمسك برأيه وبما وصل إليه باجتهاده الذي هو الحق في ظنه .
وهذا شريطة أن يسير على نهج المتمسك بالحق لا المتعصب كما أسلفنا ، وإما أن لايكون ممن أهّل للإجتهاد ولم يرفع بالعلم رأساً بل غاية أمره أنه اطلع على ورقات أو كتيبات من هنا وهناك ، واستمع إلى بعض الآراء من هذا العالم أو ذاك ، وأدار بعض المناقشات مع أترابه ونظرائه ممن فتنوا بالعلم فاعتقدوا أن تحصيله هين سهل لايحتاج إلا القليل من الإطلاع والنظر في كتب الأقدمين ثم تكديس الكتب بالبيوت ، وأنه بذلك تكتمل لهم القدرة على الفتوى ، بل وعلى رد آراء الأئمة الأعلام ، بدعوى الفرار من التقليد ، فهؤلاء حالهم أسوأ ممن سبقهم من المقلدة ، وترى التعصب فاشياً بينهم إلى أقصى مداه ، فالمقلد المجتهد - وإن تعصب له - فالاحتمال قائم في أن يصيب قوله الحق فيكون ممدوحاً على إصابة الحق بفعله مذموماً لتعصبه .

أما من تعصب لقول نفسه دون أن يكون ممن تحلى بالعلم بالمطلوب فهو أولاً مذموم لتعصبه ، ثم مذموم لعدم اتباعه من أمر باتباعه من أهل الذكر العالمين كما هو مفروض عليه ، ثم إن إصابته للحق احتمالها قليل ، فهو مذموم كذلك لاتباعه مالم يغلب على الظن ، وماهو خطأ في غلبة الظن .

---

(1) قال الشوكاني : (فالحق الذي لاشبهة فيه ولاشك أن الحق واحد ومخالفه مخطىء ماجور إذا كان قد وفى الأجتهاد حقه ولم يقصر في البحث) انظر: إرشاد الفحول/ 262 ، وقد استدل بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران وإن اجتهد فأخطا فلح أجر ، وقد نقل هذا القول عن مالك والشافعي وابي حنيفة وأكثر الفقهاء . (المصدر السابق / 261) . والمقصود بأن الحق واحد هن في المسائل الإجتهادية الإجتهادية التي لا نص فيها أما ماجاء من اختلاف التنوع مثل أنواع الإستفتاح أو التشهد أو غير ذلك في أحاديث صحيحة فالحق فيه هو كل هذه الوجوه .
(2) أدب الطلب للشوكاني
(3) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل 1 / 155 .
(4) جمال الدين القاسمي : قاعدة في الجرح والتعديل / 32 .
(5) ذكر العلماء الشروط الواجب توفرها في المجتهد المطلق - وهذه الشروط تخفف عندما يكون الإجتهاد في دائرة محصورة - وقد اجملها الشوكاني في (إرشاد الفحول) بما يلي :
الشرط الأول : (أن يكون عالماً بنصوص الكتاب والسنة فإن قصر في أحدهم لم يكن مجتهداً ولايجوز له الإجتهاد ولايشترط معرفته بجميع الكتاب والسنة بل بما يتعلق منهما بالأحكام) .

وأما من قلد من ليس بعالم أصلاً، فهذا قد جمع الشرّين ، إذ هو مأمور أن لايتبع إلا من وثق بعلمه وشهد له بذلك ، فقد ذكر العلماء أن مجهول الحال الذي لايعرف عنه علم أو جهل ، لايصح تقليده ، ويحسن بنا ان لاننتقل من هذا المقام حتى نقول كلمة حق تختص بهذه المسألة ، وهي مسألة الإجتهاد والتقليد ، لأن هذه المسألة ودون ضبطها وتحريرها أدت إلى كثير من الخلط والإضطراب وإلى المزيد من التفرق والتشتت ، وهي مسألة ليست بعيدة عما نحن فيه من دراسة التعصب فإن التعصب فرع عن التقليد ، وكما أنه قد نشأ عن دعوى التفلت وإباحة الاجتهاد لمن شاء بحجة ذم التقليد أن تبعثرت الجهود وتفتت الدعوة وادعى الأصاغرالعلم ، كذلك فإنه قد نشأ عن الجمود والتمسك بقول من يغتقد فيه العلم – دون دليل حقيقي – ان ظهرت طائفة ممن عموا وصمّوا عن الحق الواضح المستبين الذي لاتنكره إلا العين الكليلة بل العمياء .

وكلا الأمرين شرلابد من دفعه بكل وسيلة ، والمعايش للدعوة الإسلامية في حاضرها يرى كم جر كل من الاتجاهين إلى نكبات وويلات ،والغريب في الأمر أن سبيل التفلت هو سبيل دعاة الجمود سواء بسواء ، فإن داعي التفلت - بأي محنة كانت - إنما يبدأ بالانكار على من نصحه باتباع شرائط العلم الصحيحة والوقوف عند الحد الذي أوقفه الله عنده ، ثم ينتهي آخر أمره إلى الجمود إما على رأيه أو على رأي من هو على شاكلته ممن زيّن له هذا الطريق أو توسم فيه العلم دون حق !

فلابد إذن من محاولة البيان على قدر الجهد والطاقة .

فإن منهج أهل السنة والجماعة هو الاعتدال والوسطية ، بينما النظر إلى الأمور من زاوية واحدة أو التطرف في الآراء إلى حد أطرافها ليس بمنهج الاعتدال والوسطية :

أولا : وقد وردت عن الأئمة الأعلام نقول كثيرة تفيد ذم التقليد والمقلدين نجتزىء منها بعض ماذكره الامام ابن القيم في (اعلام الموقعين) قال :

(وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم ، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة فقال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لايدري ، ذكره البيهقي .

وقال أبو داود : قلت لأحمد : الأوزاعي هو أتبع من مالك ؟ قال : لاتقلد أحداً من هولاء ، ماجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به ، ثم التابعي بعد الرجل فيه مخير .

وقال بشر بن الوليد : قال أبو يوسف : لايحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا .

وقال ابن مسعود : لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر فإنه لاأسوة في الشر) .

ولنا تعليق في هذا الصدد ، فقد نقل الفضلاء أنه يمكن لأي من الناس الإجتهاد والفتوى إن أحرز بعض مصنفاته الحديث وبعض كتب الجرح والتعديل وقد تناقل بعض من تتلمذ عليه ذلك واشاعه مما أدى إلى عواقب وخيمة تعاني منها الدعوة الإسلامية أيما عناء ، وقد قابلت تلك الدعوة بعض النفوس التي هُيأت للتفلت واستمرأت التطاول فتناست قدر نفسها وغمطت حق غيرها . وقد أحسن الشوكاني في فصل هذه المسألة فقال : (والحق الذي لاشك فيه ولاشبهة أن المجتهد لابد أن يكون عالماً بما أشتملت عليه مجاميع السنة التي صنفها أهل الفن كالأمهات الست ومايلحق بها من المسانيد والمستخرجات ولايشترط في هذا أن تكون محفوظة له مستحضرة في ذهنه بل يكون ممن يتمكن من أستخراجها من مواضعها بالبحث عنه وأن يكون له تمييزبين الصحيح منها والحسن والضعيف ويتمكن من معرفة حال الرجال وما هو مردود وماهو قادح في العلل وماهو غير قادح) إرشاد الفحول / 251.

الشرط الثاني : أن يكون عارفاً بمسائل الإجماع حتى لايفتي بخلاف ماوقع الإجماع عليه .

الشرط الثالث : أن يكون عالماً بلسان العرب بجيث يمكنه تفسير ماورد في الكتاب والسنة من الغريب ، ولايشترط أن يكون حافظاً لها عن ظهر قلب بل متمكناً من استخراجها من مؤلفات الأئمة .

الشرط الرابع : أن يكون عالماً بعلم أصول الفقه ، وعليه أن يطول الباع فيه ويطلع على مختصراته ومطولاته فإن هذا العلم هو عماد فسطاط الاجتهاد وأساسه الذي تقوم عليه أركان بنائه وهن أهم آلة في يد المجتهد . والشوكاني من كبار المحدثين وممن شدد النكير على التقليد وهاهو ذا يبين ضرورو علم الأصول لمن رام الإجتهاد .

الشرط الخامس : أن يكون عارفاً بالناسخ والمنسوخ بحيث لايخفى عليه شيء من ذلك مخافة أن يقع في الحكم بالمنسوخ ، انظر أيضاً: الموافقات للشاطبي وغياب الأمم للجويني / 400 والمستصغر للفوالي 2 / 350 . وما ذكرناه آنفا من الشروط هي مايجب توفره في المجتهد المطلق الذي يدلي في كل مسألة برأي ويُلجأ إليه في الحوادث المستمدة ويفتي فيها بما يوافق أصول الكتاب والسنة ومقاصدهما ، ولكن ذلك لايمنع من وجود مجتهد المسألة وهو من تمكن من دراسة معينة بذاتها دراسة وافية بكل ادلتها ومايدور حولها من مسائل خادمة لها في اللغة أو الأصول فيمكنه أن يفتي فيها بناءاً على علمه ذاك شريطة أن يكون قد استقصى الأمر من كل جوانبه . انظر إحكام الأحكام للآمدي 4 / 221 .

قال الشنقيطي : (ومعلوم أن المقلد الصرف لايجوز عده من العلماء ولامن ورثة الأنبياء) (1) .

ثانياً : كما وردت النقول والآثار عن الأئمة تذم القول على الله بغيرعلم ، بل كان العديد منهم يتحرج من الفتوى ويحيل السائل على غيره من العلماء حتى يطوف الواحد بجمع من العلماء حتى يرجع إلى أول عالم استفتاه .

نقل ابن القيم في (اعلام الموقعين) في باب تحريم الافتاء في دين الله بغير علم والاجماع على ذلك وذكر قول الله تعالى وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(2) وان ذلك يتناول القول على الله بغير علم في أسمائه وصفاته وشرعه ودينه .
وذكر حديث أبي هريرة المرفوع (من أُفتي بفتيا غير ثبت فإنما إثمه على من أفتاه) .

(1) أضواء البيان 432/7 وانظر أعلام الموقعين لابن القيم 2 / 192 وبعدها . والحق أن الامام ابن القيم كان من أكثر المشددين عللى المقلدة وقد أفاد وأجاد فيما ذدر من أدلة على مراده ذاك في (أعلام الموقعين) إلا أن لنا تعليقاً على مااورده الامام في ذلك الكتاب الجليل ، فنقول :
أولا : عنون الامام في 187/2 حين تكلم عن التقليد بقوله : ذكر تفصيل القول في التقليد وانقسامه إلى مايحرم القول فيه والافتاء به ، وإلى مايجب المصير اليه ، وإلى مايسوغ من غير إيجاب . والعنوان ذاته يحمل معنى أن التقليد ليس كله مذموماً ممنوعاً بل أن منه مايجب المصير إليه كذلك فإنه شرع بعدها في الحديث عن النوع الأول وهو التقليد المحرم وقسمه إلى ثلاثة أقسام : هي الاعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء ، الثاني : تقليد من لايعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله ، الثالث : التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد . واستطرد الامام بعدها في الحديث عن النوع الأول وهو المحرم وهو وردّ على من أجاز التقلي بحجج عقلية ثم ذكر نهي الأئمة عن تقليدهم ثم عقد مجلس مناظرة بين صاحب حجة ومقلد استغرقت ما يوازي ثمانين صفحة (من 201 إلى 278) فذكر فيها إحدى وثمانين وجهاً ينصر فيها صاحت الجحة على المقلد - وهو فيها على حق - إلا أنه قال في النهاية : وقد أطلنا الكلام في القياس والتقليد ، وذكرنا من مآخذهما وحجج أصحابهما ومالهم وماعليهم ... ثم أنهى حديثه عن التقليد ونسى – رحمه الله تعالى – أن يتحدث عن بقية الأنواع الثلاثة التي قسم إليها التقليد في عنوان الكتاب وهما التقليد الذي يجب المصير إليه والتقليد الذي يسوغ ، وقد سبب رحمه الله بهذا النسيان بلبلة وخلطاً كبيرين عند من أشرنا إليهم من قبل من الإسلاميين خاصة وليس بأحدهم طاقة إلى التحقق مما هو مسطور والتفكر فيما ورأه والنظر إليه بعين فاحصة وعقل مفتوح على الرغم من أن هولاء بالذات هم دعاة عدم التقليد والتعصب ودعاة التفلت والتطاول وكان أولى بهم أن يكونوا أول من يدقق ويحقق فيما قرأوه لابن القيم أو لغيره ولكن كما ذكرنا في حديثنا من قبل إن دعاة التفلت ودعاة الجمود يلتقيان في نهاية المطاف !
وقد أشار الامام الى النوعين الآخرين من التقليد إشارة عابرة في ثنايا حديثه المطول عن التقليد المحرم ، قال : وأما تقليد من بذل جهده في اتباع ماأنزل الله وخفى عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه فهذا محمود غير مذموم ومأجورغير مأزور، كما سيأتي بيانه عند ذكرالتقليد الواجب والسائغ أن شاء الله 188/2 وهذا يؤكد ماذكرناه من نسيانه رحمه الله لتفصيل القول في النوعين المذكورين الذي أشار الى إلى أحد أشكال نوع منهما دون تفصيل .
وقال : فأن قال : قصري وقلة علمي يحملني على التقليد ، قيل له : أما من قلد فيما ينزل به أحكام شريعته عالماً يتفق له على علمه فيصدرله في ذلك عما يخبره فمعذور ، لأنه قد أدى ماعليه ، وأدى مالزمه فيما نزل به لجهله ، ولابد له من تقليد عالم فيما جهله وهو شكل آخر ينتمي لأحد النوعين المذكورين دون تفصيل 199/2 .
لذلك فإن الواجب هو أن ندرك أن الآثار التي أوردها ابن القيم وغيره من العلماء تفيد ذم التقليد ليست مطلقة بل مقيدة بالتقليد المحرم والإ فكيف يُذم من قلد فيما يجب أو يسوغ له التقليد فيه ؟
ثانياً : فرق ابن القيم بين التقليد والاتباع قال : فإن طريقتهم – أي الأئمة – كانت اتباع الحجة والنهي عن تقليدهم كما سنذكره عنهم إن شاء الله ، فمن ترك الحجة وارتكب مانهوا عنه ونهى الله ورسلله عنه قبلهم فليس على طريقتهم وهو من المخالفين لهم ، وإنما يكون على طريقتهم من اتبع الحجة ، وانقاد للدليل ... وبهذا يظهر بطلان فهم من التقليد اتباعاً ... 20/ 190 ثم أورد عن أبي عمر بن عبد البر آثاراً وأقوالاً للدلالة عن الفرق بين الاتباع والتقليد .
ويظهر من كلمات ابن القيم السالفة أن قصده بالاتباع هو أن يسير الناظر في الشريعة على طريق الأئمة فيكون متبعاً لهم في طريقتهم التي هي التمسك بالكتاب والسنة واتباع الدليل وليس مقلداً لهم في أقوالهم وإن ظهر له خلافها في الدليل الصحيح ، وقد يكون القصد هو اتباع عالم بعد سؤاله عن دليل المسألة ، ولامشاحة في الآصطلاح فإن كان التقليد هو السيرعلى مذهب معين في كل ما يعرض للانسان من مسائل والتعصب لهذا المذهب فلاشك ان هذا التقليد مذموم والواجب اتباع الدليل بعد سؤال العلماء عن ذلك . وإن قصد بالتقليد اتباع العلماء المجتهدين رغبة في تنفيذ حكم الله في حياة الفرد فهذا تقليد محمود ، وإن قصد بالاتباع أن يقر في عقل المسلم أنه لامورد له في شؤون حياته إلا الكتاب والسنة فهم منبع لحكمها فهو معنى صحيح وإن قصد به تلك الفوضى والاضطراب الذي يشيع بين بعض المسلمين نتيجة افتراضه أن له القدرة على الفتوى والاستدلال فهذا لايجوز أن تنزلق فيه أقدام الإسلاميين . أنظر أضواء البيان 547/7 .
ثالثاً : يتضح من متابعة أقوال الأئمة الذين تحدثوا في ذم التقليد والنص على أصحابه وعلى رأسهم ابن القيم يلحظ أن أقوالهم تلك موجهة إلى صنف معين هم مقلدوا المذاهب ممن لهم علم بفروع المذهب ، قال ابن القيم في الوجه الثامن عشر في مجلس المناظرة : (أعجب من هذا كله من شأنكم معاشرالمقلدين أنكم إذا وجدتم آية من كتاب الله توافق رأي صاحبكم أظهرتم أنكم تأخذون بها ، وإذا وجدتم آية نظيرها تخالف قوله لم تأخذوا بها وتطلبتم لها وجوه التأويل وإخراجها حيث لم توافق رأيه وهكذا تفعلون في نصوص السنة سواء ،... وأذا وجدتم مرسلاً قد وافق رأيه أخذتم به وإذا وجدتم مائة مرسل تخالف رأيه أطرحتموها كلها من أولها إلى آخرها وقلتم لانأخذ بالمراسيل) أعلام الموقعين 214/2 . فكلامه هذا يدل على أن المقلد المذكور ليس في رتبة العوام من الناس ويوضح ذلك بجلاء ماذكره ابن القيم في حديثه عن أنواع المفتين فقال :
(النوع الثالث : من هو مجتهد في مذهب من انتسب إليه مقرر له بالدليل ، متقن لفتاويه ، عالم بها ، لايتعدى أقواله ولايخالفها ، واذا وجد نصٌ إمامه لم يعدل عنه إلى غيره البتة وهذا شأن أكثر المصنفين في مذاهب أئمتهم وهو حال أكثر علماء الطوائف ، وكثير منهم يظن أنه لاحاجة به لمعرفة الكتاب والسنة والعربية لكونه مجتزياً بنصوص إمامه فهي عنده كنصوص الشارع ، وهؤلاء لايدعو الاجتهاد ولايقرون التقليد ويقولون : إجتهدنا في المذاهب فرأينا أقربنا الى الحق مذهب إمامنا فياالله العجب من اجتهاد نهض بهم إلى كون متبوعهم ومقلدهم أعلم من غيره وأن مذهبه هو الراجح ، وقعد بهم عن الاجتهاد في كلام الله ورسوله واستنباط الأحكام منه) .
ويقول في النوع الرابع من المفتين : (طائفة تفقهت في مذاهب من انتسبت إليه وحفظت فتاويه وفروعه وأقرت على نفسها بالتقليد المحض من كل الوجوه فإن ذكروا الكتاب والسنة يوماً ما فعلى وجه التبرك والفضيلة لا على وجه الاحتجاج والعمل ، وإذا رأوا حديثاً صحيحاً مخالفاً لقول من انتسبوا إليه أخذوا بقوله وتركوا الحديث) أعلام 213/4.
فكلام ابن القيم ليس منصباً على العوام الذين لايستطيعون أي نوع من الاجتهاد بل على من فوقهم من المتعصبين ، والعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمل بالاجماع ورجوع العامي غلى المجتهد لايسمى تقليداً أصلاً كما ذكر الشوكاني في (إرشاد الفحول / 265) :
(لأن فتاوي المجتهدين بالنسبة إلى العوام كالأدلة الشرعية بالنسبة الى المجتهدين) انظر الموافقات 292/4 .
والأصل عند سؤال العالم أو المجتهد أن يتحيز الأكثر ورعاً والأعلم وهذا ماذهب إليه أحمد ابن حنبل وابن سريج والقفال والشاطبي وأما دعوى الاجتهاد للعوام الذين لايملكون أي أداة من أدوات البحث والنظر فهذه دعوة مرفوضة وقد قام ببثها في العصرالحاضر جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ، وهذه مدرسة معروفة أغراضها وأهدافها. انظر الإسلام والحضارة الغربية للدكنور محمد محمد حسين .
وكذلك دعوة الاكتفاء بالمذاهب الفقهية دون الرجوع إلى الكتاب والسنة لعدم الحاجة إلى ذلك ، فهذه من أبطل الباطل لأن الكتاب والسنة هما مصدرا التشريع الوحيدان في حياة المسلمين ، وإنما نريد حفظ دين الله من خبط الخابطين وجهل الجاهلين ، والمسلم مطالب بالعلم والتعلم ماأمكنه ذلك والشريعة ليست ألغازاً وأحاجي ، وإنما سبيل العلم التبصر والبحث والاخلاص فمن قدرعلى ذلك فهن السعيد ، والاعراض عن كتاب الله وسنة نبيه فيه مافيه من الجهل والضلال .
(2) البقرة -169

وقال الزهري عن خالد ابن أسلم وهو أخو زيد ابن أسلم : خرجنا مع ابن عمر نمشي فلحقنا أعرابي فقال : انت عبد الله من عمر ؟ قال : نعم . قال : سألت عنك فدللت عليك ، فأخبرني : أترث العمة ؟ قال : لاأدري ، قال : أنت لاتدري ! قال : نعم ، اذهب الى العلماء في المدينة فأسألهم ، فلما أدبر قبل يديه وقال : نعما قال أبو عبد الرحمن ، سئُل عما لايدري فقال لايدري .

وقال أبو حصين الأسدي : إن أحدهم ليفتي في المسألة ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر .
وقال ابن جبير : ويل لمن يقول لما لايعلم اني أعلم (1) .

وقال في موضع آخر : (فوائد تتعلق بالفتوى مروية عن أحمد : الفائدة الرابعة والعشرون ....
قال في رواية ابن صالح : ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بوجوه الأسانيد الصحيحة ، عالماً بالسنة ، وقال في رواية أبي الحارث : لاتجوز الفتيا إلا لرجل عالم بالكتاب والسنة ، وقال في رواية ابن حنبل : ينبغي لمن أفتى أن يكون عالماً بقول من تقدم وإلا فلا يفتي) (2) .

ومن تأمل هذين الأصلين العظيمين اللذين أفاض فيهما الأئمة وجب عليه أن يجمع بينهما حيث أن ظاهرهما قد يوهم التناقض خاصة عند من لم يحقق معنى الأجتهاد والتقليد وحدودهما وشروطهما ، اذ كيف يتأتى لمن لم يُحصل العلم اللازم أن يفتي وقد حذرناه من القول على الله بغير علم ونهيناه عن التقليد واتباع الرجال إلا ان يقول بالهوى والتشهي وهو منهي عنه بالاجماع .

وطريق هذا الجمع هو اعتبار الاختلاف في نوعية المسائل من جهة واختلاف درجة المستفتي من جهة أخرى .

فمن المسائل مالايصح فيها التقليد على الاطلاق وهي مايتعلق بتوحيد الله عز وجل في الألوهية والبوبية والأسماء والصفات لأن ادلة هذه مستفيضة واضحة لتعلقها بأصل الدين ، وقد جعل الله سبحانه ادلة هذه الأمور من الوضوح بحيث لاتحتاج إلا الى النظر المنصف . أما مسائل الفروع فهي على قسمين :
قسم اشتهرت أدلته واستفاضت بحيث لاتخفى على مسلم كوجوب الصلاة وصوم رمضان وتحريم الزنا والخمر ... فهذا لايجوز تقليد أحد على خلافها . وقسم محل نظر المجتهدين فهو مأجور مرة أو مرتين ، فهذا القسم هو الذي يجوز لمن يحصل أدوات البحث والنظر أن يسأل عالماً تقياً فيتبعه في ذلك ، وأما المجتهدون – بكافة درجاتهم – فلا يحق لهم إلا اتباع الدليل وليس لأحد قول مع قول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أمثلة من التعصب :

زخر تاريخ الإسلام بأمثلة وضيئة من اتباع الحق وعدم التعصب للرأي والتسامح والاعتدال في الفهم ، كما شابت وضاءته بعض الأمثلة من التعصب والغلو والتطرف في الرأي والمذهب . فابن الجوزي الحافظ الذي يعد من علماء الحديث قد اتخذ موقفاً منصفاً حين عرض لطائفة من أهل الحديث الذين لبّس عليهم إبليس بخدعه وتخيلاته ، قال يصفهم : (يسعون وراء الأسانيد العالية والمتون الغريبة مع انشغالهم بهذا عما هو فرض عين من معرفة مايجب عليهم والاجتهاد في أداء اللازم والتفقه في الحديث) (3) .

ومن هؤلاء ابن تيمية . فعندما ذكر أصناف الناس الذين يظنون عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان أصول الدين قال : (وهذا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة) (4) فلايمنعه أنه من أهل الحديث من ذكر أخطائهم .

كما نهج (ابن الآلوسي) في كتابه (جلاء العينين) (5) منهاجاً خالياً من التعصب ملتزماً بالاعتدال أنصف فيه ابن تيمية من شانئيه ومعارضيه الذين أسرفوا عليه وعلى أنفسهم في نقده والنيل منه وعلى رأسهم ابن حجر الهيثمي ، لأن بكلام ابن حجر هو عين التعصب المقيت فقد قال بابن تيمية كلاماً لايقوله عالم ، لأن العلماء لاينقدون بالسباب والشتائم .

---

(1) اعلام الموقعين : 184/2 وبعدها
(2) المصدر السابق : 4/ 215
(3) تلبيس إبليس / 114
(4) درء تعارض العقل والنقل 128/1
(5) الكتاب هو (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) أحمد ابن تيمية وأحمد ابن حجر الهيثمي

ومن أمثلة التعصب كلام السبكي في ابن تيمية فقد عد من نقائص ابن تيمية أنه خالف المذاهب الأربعة في بعض المسائل ، وهذا حق له لأنه مجتهد ، وقد خالف السبكي ماارتضاه هو قاعدة لنفسه في كتابه (الجرح والتعديل) فقد ذكر المنع من قبول الجرح ممن اختلف حاله في العقيدة بين الجارح والمجروح ، ثم قال : (بل الصواب عندنا أنه من ثبتت إمامته وعدالته وكثر مادحوه ومزكوه وندر جارحه فإنا لانلتفت إلى الجرح فيه ونعمل فيه بالعدالة) .

بينما نرى ابن تيمية يقول : (هذا وأنا في سعة الصدر لمن يخالفني فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو افتراء أو عصبية جاهلية فأنا لاأتعدى حدود الله فيه ، بل أضبط ماأقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل) (1) .

ولعل من أبرز امثلة التعصب الذميم ما ذكره ابن عقيل قال : (رأيت الناس لايعصمهم من الظلم إلا العجز ولاأقول العوام بل العلماء ، كانت أيدي الحنابلة مبسوطة في أيام ابن يونس فكانوا يستطيلون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع حتى ما يمكنوهم من الجهر بالبسملة والقنوت – وهي مسألة أجتهادية – فلما جاءت أيام النظام ومات ابن يونس زالت شوكة الحنابلة ، واستطال عليهم اصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة ، فتدبرت أمر الفريقين فأذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم) (2) .

والحقيقة أن روح الانصاف والبعد عن التعصب قد شاع في كثيرمن فتاوي وكتابات الأئمة العلماء المجتهدين ، ونحن نحسب أن كل من حاز هذه الدرجة العالية من العلم والفقه في الدين فلا بد له من أن يتحررمن العلم والفقه في الدين فلا بد له من أن يتحرر من ربقة التعصب الذي هو توأم التقليد كما ذكرنا ، ومن هؤلاء العلماء الشاطبي الذب خالف المالكية في العديد من المسائل ، وابن تيمية الذي خالف الحنابلة بل الأئمة الأربعة مما أداه ال اجتهاده ، وأبو المعالي الجويتي الشافعي ولكنه كان (حر الرأي والضمير) (3) ، وأمثالهم كثير .

وفي مقابل هذه الصورة الوضيئة نرى مثل الكرخي الحنفي يدعي دعوة عريضة لم يسبق إليها وهي تمثل ذروة التمذهب والتعصب فقد ورد في كتاب (أصول الكرخي) :
(الأصل في كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها تحمل على النسخ أو على الترجيح والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق) (4) .

وأما في الأحاديث التي تخالف المذهب فيقول :

(الأصل إن كل خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا فإنه يحمل على النسخ أو على أنه معارض بمثله ثم صار إلى دليل آخر أو ترجيح فيه بما يحتج به أصحابنا من وجوه الترجيح أو يحمل على التوفيق) (5) فسبحان الله العظيم ، أن يعتبر الأصل هو صحة المذهب وأن تحمل الآيات والأحاديث بعد ذلك على مايوافق المذهب ؟! ولو قال : يقدم المذهب على ماعداه لكانت المشكلة أخف وطأة ، ولكن ولكن أن يكون الأصل هو صحة المذهب ويوفق على أساسه الكتاب والسنة ، فهذا خلف باطل وعصبية شنعاء واستبدال المدلول بالدليل ، ولاحول ولا قوة إلا بالله .

(1) الفتاوى 3 / 245
(2) القاسمي : الجرح والتعديل / 35
(3) قاعدة في الجرح والتعديل / 31
(4) مقدمة (الغبائي) تحقيق عبد العظيم الديب
(5) رسالة في أصول الكرخي (ماحق لكتاب تأسيس النظر للدبوسي)

المبحث الثالث

الجهل

الجهل صفة بغيضة في النفس ، مذمومة في العقل، لايقبل الاتصاف بها أحد عن رضى وقناعة ، ففطرة النفس التي فطرها الله عليها أنها نازعة إلى العلم ، محبة له، لأنها نازعة للكمال دون النقص وان اختلفت درجات الناس في سلم الارتقاء لهذا الكمال.

والجهل من أسباب التفرق الذي حذرنا الله منه عندما ذكر صفة أهل الكتاب وأن من أسباب العداوة بينهم هو نسيان العلم

فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ (1)

وقال سبحانه عن الأمم السابقة :

فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ (2) .

والخوض هو بالاعتقاد الباطل أو التكلم به (3) .

وقال تعالى وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ (4)

ولذلك حث الشرع الحنيف على طلب العلم والسعي في تحصيله (5) . روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (**طلب العلم فريضة على كل مسلم**) كما وردت الأحاديث والأخبار بفضل العالم على غيره فضلاً كبيراً . روى الترمذي من حديث أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ....**) .
قال الربيع : سمعت الشافعي يقول : (طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة) .

والايات والأحاديث في الحث على العلم المنافي للجهل كثيرة جداً ويكفي في ذلك مارفع الله به درجة العلماء حين استشهد بهم على ألوهيته ووحدانيته

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (6) .

وينعي الله سبحانه وتعالى على اليهود والنصارى جدالهم في الله بغير علم وجدالهم في التوراة والانجيل بغيرعلم ، ويتحداهم أن يأتوا بأشارة ممن علم كشاهد على مايقولون ، وهذا تعليم وتنبيه منه سبحانه وتعالى بطريق الأولى للمسلمين أن لايقولوا ولايجادلوا بغير علم ، كما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من تعلم علم لاينفع ، لأن العلم الحقيقي هن الذي ينفع الانسان في الدنيا والآخرة ، ورفع الله جل شأنه به أمة أمية جاهلية إلى أمة هي في مرتبة الاستاذية للعالم ، وليس في العالم أمة وسطاً في أقوالها وأفعالها وعلمها كالأمة الإسلامية .

والجهل قد يكون لنقص العلم وقد يكون لعدم وجود العلم النافع وكلاهما حذر الله ورسوله منهما ، بل الجهل هو أحد شِقي ضلال الناس ، والشق الثاني هو الظلم ، يقول ابن تيمية (7) : { والجهل والظلم هما أصل كل شر كما قال سبحانه :

وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } (8) .

والجهل أصل الضلالين ، وأخطر الشرين ، فمن جهل ظلم وتعدى سواء ظلم نفسه أو غيره ، وتعدى على حدود الله تعالى ، والظالم بالضرورة جاهل بما افترضه عليه من العدل أو متناس .

---

(1) المائدة - 14 (2) التوبة - 69 (3) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم / 25 (4) الاسراء-36
(5) راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (6) آل عمران - 18 (7) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم / 17 (8) البقرة - 273

والجهل قد يكون بمعنى الفقد الكمي للعلم كما قال تعالى يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ (1) أي غير العالم بحقيقة حالهم أو المطلع على خفايا اوضاعهم ، فهو فاقد للعلم بذلك والجهل المنشأ للضلال أعم من ذلك ، إذ قد يكون كمياً وقد يكون كيفياً بمعنى أن العلم ليس علماً حقيقياً ينشأ عنه اليقين .

والحق أن مجرد فقد العلم ليس محلاً للذم في كل حال إلا أن يكون علماً مطلوباً طلب عين على كل مسلم ، والناس إما عالم أو متعلم ، وغير ذلك غوغاء أتباع كل ناعق ، وكل من أهل هذين القسمين يقع فيهم الجهل المؤدي للضلال .

فالقسم الأول وهم علماء الناس ، فإننا نرى أن لهم درجات متفاوتة وأنواعاً متميزة حسب مايصل إليه علم العالم منهم وحسب مجال النظر له ، فعلماء الشريعة درجات ، منهم القادرون على التصدي للافتاء والمختصون بعلم الفقه عامة ومنهم المستقل بدراسة علم معين كالحديث أو الأصول او غيره ، ومنهم علماء تدارسوا الشريعة وعلومها بشكل عام ومجمل وتعلموا مقاصدا ومآخذها إلى جانب الاحاطة بغير ذلك من العلوم التي تنظم أحوال المعيشة وببعلق بأحوال الدنيا وغير ذلك من صنوف العلماء الذين يتخصصون في العديد من فروع العلم المتسقة .

والجهل المؤدي للضلال قد يقع من هولاء من نواح :

أولاً: ممارسة الواحد منهم لما لايصح له من العلوم دون تأهل لذلك اغتراراً بقدرته وذهولاً عن حقيقة علمه ومجاله فإذا به ينشغل بالكلام فيما لم يحصل رتبته ولم يبلغ الدرجة التي تؤهله للخوض فيه وإبداء الرأي في مسائله ، وكذلك أن يحاول من هو في طبقة من طبقات العلم أن يتعداها دون تحصيل شروط الطبقة التي قبلها ، فيضع نفسه في غير موضعها فيضل ويُضل نفسه ويكون بهذه الصفة من الجاهلية ، وإن من تمام فقه الفقيه وعلم العالم أن يعرف قدر نفسه فلا يتعداه وأن يحقق مجاله العلمي فلا يخرج عنه ، ولايتصدى لما ليس له به بلأهل ، فهو أن كان من علماء الحديث المتخصصين فمجاله في علم الحديث واسع ولاعليه أن لايفتي في مسائل كثيرة تحتاج إلى أدوات أخرى من الأصول واللغة ومنهم الواقع والعيش مع مشكلات الناس والغوص الدقيق في كتب الفقه ، وقل مثل ذلك لمن حصل القدرة على الفتوى فليس له ان يفتي بدون التحقق من صحة الحديث أو أن يتحدث في الرجال وجرحهم وتعديلهم دون أن تكتمل له أدوات البحث في علم الحديث ، والأنكى من هذا هم من يتصدى للافتاء وليس بين يديه أي أداة من أدوات الاجتهاد وإنما شذرات من بعض العلوم المتفرقة .

وإن ماذكرناه إنما ينشأ لما يَجده الواحد من هؤلاء في نفسه من خوف من التقصير وكراهة أن يُسأل عما لايعرف فيقول: لاأدري وحباً في أن يظهر وسط الطلاب والمريدين والاتباع بمظهرمن لاتخفى عليه خافية وفي هذا مافيه من الخطأ والجهل.

نقل ابن القيم : (وصح عن ابن مسعود وابن عباس : من أفتى الناس في كل مايسألونه عنه فهو مجنون ، وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل به ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله اعلم فإن الله قال لنبيه : قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (2) .

وقال ابن سيرين : لأن يموت الرجل جاهلاً خير له من أن يقول مالا يعلم .

وقال مالك من فقه العالم أن يقول : لاأعلم . فأنه عسى أن يتهيأ له الخير . وقال الشعبي : لاأدري نصف العلم) (3) .

ثانياً: إن الجهل قد يكون خصيصة من خصائص بعض العقول رغم تراكم المعلومات والمعارف فيها تراكماً كمياً ، فيكون صاحب هذا العقل جاهلاً رغم مايختزنه عقله من معرفة وعلم ، ومرد ذلك – فيما نحسب – إلى عدم التمكن من ربط هذه المعارف المكتسبة بعضها ببعض ربطاً منطقياً صحيحاً متسلسلاً ليؤدي إلى علم حقيقي هو الاحاطة بحقائق تلك المعارف ومقاصدها وغاياتها ثم الخروج بنتائجها ولوازمها في شكل واضح مترابط ، قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (4) .

---

(1) البقرة - 273 (2) سورة ص - 86 (3) اعلام الموقعين 2 / 185
(4) الجمعة – 5 . يقول القرطبي في تفسيره : ففي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم مافيه لئلا يلحقه من الذم مالحق هؤلاء 18 / 94 .

فهؤلاء جمعوا الأسفار في عقولهم دون أن يفقهوا لها معنى أو يحيطوا بمغزاها خبراً ، فكان منهم من لم يربط أوامرها ونواهيها بمقاصدها وغاياتها فاستوى عندهم لفظها ومعناها وغابت عنهم حكمتها فكانوا رواة أخبار لاعلماء أحبار ، ومنهم من حفظ ألفاظها وعرف أشكالها ورواياتها ثم أدّعى عدم كفايتها بالمطلوب وأن لادلالة لألفاظها إلا على وجه من المعاني يريده هو فهدم بذلك الشريعة وهو يحسب أنه يحسن صنعاً .

فالظاهرية أرباب النصوص جهلوا مدلولات الألفاظ وأنها تراد لمعانيها وأن للشريعة مقاصد ومعان تحقق المصلحة وتدرأ المفسدة على أكمل الوجوه فعطلوا المعاني في سبيل الألفاظ .

و (العقلانيون) من معتزلة ومن نحا نحوهم ممن عظموا العقل وحكّموه من أهل الرأي المذموم ، بخسوا الشريعة قدرها ورفعوا العقل فوقها بينما هو تابع لامتبوع فعطلوا النصوص في سبيل الرأي والعقل بل الهوى .

يقول ابن تيمية في تفسير آية المائدة فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ (1) فلما أعرضت الطائفتان (طائفة العقلانيين ، وطائفة الذين يأخذون النصوص بدون الدلالة التي فيها والبراهين على صدق الرسول ...) لما أعرضوا عن الطريقة الصحيحة حصل لهم التفرق) (2) .

ومن هنا كان جهل هذه الطائفة هو منشأ التفرق ، وهم كانوا رؤوس البدع إذ أن ابتداعهم عادة يكون في أصل كلّي من أصول الشريعة وقواعدها العامة .

يقول الشاطبي في الاعتصام في بيان السبب الذي يرجع إليه التفرق :
(وهو الجهل بمقاصد الشريعة والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبيت أو الأخذ فيها بالنظر الأول ولايكون ذلك من راسخ بالعلم . ألا ترى الخوارج كيف خرجوا من الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمي ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفهم بأنهم يقرؤون القرآن لايتجاوز تراقيهم ، يعني – والله أعلم – أنهم لايتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم لأن الفهم راجع إلى القلب فإن لم يصل الى القلب لم يحصل فيه فهم على حال ، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف فقط وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لايفهم) (3) .

وكل الذي ذكرناه ان صحت النية وحسن القصد ، وأما ان فسدت النية وانحرف القصد فالعالم يتخذ علمه وسيلة لتحصيل منفعة في الدنيا أو إرضاء للسلطان ، فينحرف بعلمه وينحرف به علمه إلى مهاوي النفاق والمداراة والرضى بالدون وبيع الدين بالدنيا ... وهو جهل مضاعف .

وثالثاً : قد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على بعض أنواع الجهل المنشئ للاختلاف والضلال . قال في بيان أسباب الاختلاف :
(ويكون سبب جهل المختلفين بحقيقة الأمرالذي يتنازعان فيه أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر . أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم أو الدليل) (4) .

فمنها جهل المتنازعين بالأمر المتنازع فيه أصلاً وعدم الاحاطة بعلمه في كل نواحيه ، بل كل من الفريقين لم يفهم عن الشريعة في مقاصدها على الحقيقة ، إذ لو فهموا هذا القصد لما حدث التنازع فالشريعة – حين تفهم على حقيقتها – ترفع التنازع بين المختلفين ، قال تعالى وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (5) .
فحيثما وجد الاختلاف – المؤدي للتفرق والبدعة – فثم الجهل وعدم الفهم الصحيح للشريعة .

قال في الطحاوية : (بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشات في الإسلام وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد) (6) وهذا المعنى قريب مما قررناه سابقاً .

وإنما يتفرع من تصور آخر للجهل بين المتنازعين وهو عدم تحقيق النقطة المحددة التي يدورحولها النزاع ، فنجد أن كلاً من الفريقين يتحدث عن نقطة ليست هي التي يتحدث عنها الفريق الآخر ،فيستعر الخلاف بينهما ! ولو قام كل فريق بتحديد النقطة

(1) المائدة – 14
(2) الفتاوى 19 / 161
(3) الاعتصام للشاطبي 2 / 182
(4) اقتضاء الصراط المستقيم / 37
(5) النساء – 82
(6) شرح الطحاوية / 452

التي يتحدث فيها بدقة لحُسم الخلاف في كثير من الأحيان وهذا التحديد هو مايطلق عليه الأصوليون تحرير موضع النزاع .

كما يتفرع عنه أمر آخر لايقل عنه أهمية ، وهو أن كثيراً من الخلاف يكون بسبب عدم تحديد معاني المصطلحات المستخدمة في الحوار بدقة ، فإن الكثيرمن الخلط يكون ناشئاً عن أن المصطلح المستخدم او اللفظة المتداولة يكون فيها اشتراك أو إجمال.

والاشتراك : هو أن يدل اللفظ على عدة معان بالتساوي ومثاله العين : فهي تطلق على العين المبصرة وعلى الجاسوس وعلى الذات ... وكذلك القرء في الضرع قد يطلق على الحيض أو الطهر .

والاجمال : هو أن ينطوي تحت اللفظ عدة معان محتملة إن يراد باللفظ معنى محدد منها دون سواه من المعاني . وفهمه يحتاج الى أن ينضم إلى ذلك اللفظ دليل آخر ليوضح المعنى الصحيح لهذا اللفظ المجمل .

ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم : (**صلوا كما رأيتموني أصلي**) (1) . فهذا كلام مجمل يجب أن ينضم إليه معرفة حاله صلى الله عليه وسلم في الصلاة لمعرفة معنى هذا الكلام والقصد به على الحقيقة .

يقول ابن تيمية : (وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، وفي ذلك من فساد الدين والعقل مالايعلمه إلا الله) (2) .

ويعبر الدكتور جبسون عن نفس المعنى بقوله : (والواقع أن عجزالناس عن الوصول إلى تفاهم متبادل كثيراً مايكون ناشئاً عن أنهم يؤولون الكلمة الواحدة تأويلات مختلفة . ولذلك يتعين على الفرقاء المعنين بالأمر أن { يتكلموا اللغة نفسها } أي أن عليهم أن يسموا الشيء الواحد باسم واحد) (3) .

وأما عوام الناس والذين فيهم المتعلمون الطالبون للحق وفيهم الدهماء الذين لايميزون بين حق وباطل ، فهؤلاء ينشأ ضلالهم من نواحي منها :

أولاً: أن يجمع بين العجز عن البحث والنظر للوصول إلى الحق وبين اعتقاد وخلاف ذلك الحق إما تقليداً ، أو اتباعاً لهوى لأن العلم المطلوب هنا هو مايمكن الفرد من عدم الوقوع في مزالق الهوى وأن يجعله مدركاً لما يحاك حوله من دسائس ، وماتتخذه الجاهلية من صور وأشكال يمكن التمويه عليه فإنما (ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية) كما قال عمر رضي الله عنه .
وإنما يحصل الضلال لمن يظن انه يسهل عليه الوصول إلى العلم الحقيقي بمجرد نظرات في وريقات أو الاستماع لبعض الكلمات من العلماء فيتصدرون للكلام في الدين ومسائله .

ثانياً: اتباع كل ناعق والسير وراء أي شعار مرفوع وهو جهل اتباع المبتدعة في كل زمان ، وإنما يكون ذلك لأن هناك صفة أخرى في المرء تضاف إلى فقده للعلم وهي فقده للفطرة السليمة وللعقل البديهي الواضح . ذلك أن الجهل ليس قسيماً للعقل وإنما هو قسيم للعلم . فقد يكون المرء قليل العلم ولكن يكون كذلك من العقلاء الذين لايسهل التمويه عليهم او جرأقدامهم باشبهات أو مجرد الشعارات والعبارات ، وهذا القدر من العقل البديهي المستمد من الفطرة السليمة من الفساد هو الذي يقوم عليه أتباع الهدي المحمدي من عوام الخلق ، وهو الذي اعتمد عليه القرآن الكريم في عرض أدلة دعوته فهو لايعرض لمعوصات الأمور أو متعمقات الأدلة والبراهين بل يكتفي بالسهل القريب التناول على من صلحت فطرته وانشرح صدره ، فإن ذلك كاف للهداية في الإسلام .

فجهل الأتباع إذن فساد في الفطرة وفقدان للتميز وعمى في القلب يجعل المرء غير قادرعلى رؤية الحق مع وضوحه وجلائه . فالحذر الحذر من كلا الصنفين جهل الرؤوس وجهل الاتباع .

وليعض أحدنا بنواجذه على مااتفق عليه السلف الصالح من أصول وقواعد ولانخرج عنها بحال ، ثم لانأخذها إلا من مظانها وممن هم للإدلاء بها إلينا أهل ، ولانلتقي بالنظر الأول دون البحث والتمحيص أو فلنتق الله ولنحاول رؤية الحق من أي جهة سطع بمنظار الفطرة ومعيار البديهة ولايمنعنا مانع منه سواء مانع التعصب او الهوى أو الجهل أو أي شعار من الشعارات التي ترفع لتمنعنا عن رؤية الحق الساطع .

---

(1) شرح السنة للبغوي : 2 /296 (2) درء تعارض العقل والنقل 1 / 233 (3) كيف تفكر / 43

الفصل الثاني

العوامل الخارجية

مقدمة :

شكل الإسلام قوة دافعة هائلة اندفع بها الجيل الأول من الصحابة في أنحاء البلاد المحيطة بجزيرة العرب مهد الإسلام ، مزودين بتراث عظيم من الذكرى الحية لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه الشريفة التي هي مكمل ومبين لآيات الكتاب الحكيم ، واتخذ الجهاد خطاً بارزاً وثابتاً في حياة هذا الجيل الفريد مجسدين قول الله تعالى وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً (1) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**جاهدوا المشركين كافة**) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**) (2) .

بهذا الاندفاع إلى خارج الجزيرة العربية بدا عهد جديد عرف بعهد الفتوحات وكانت البداية الأولى له في عهد الصديق أبو بكر حيث استمرت الفتوحات الكبرى – والتي شكلت فتح أكبر الأمصار التي كانت لها الأثر العظيم في التفاعل والتأثير – إلى عهد عثمان رضى الله تعالى عنه .

فقد تم فتح الجوء الغربي من العراق في عهد ابي بكر من بين عامي 11 - 13 هجري على يد خالد والمثنى ، ثم استكمل فتح بقية العراق (الجزء الشرقي) في عهد عمر الفاروق 13- 19 هجري حيث كانت موقعة القادسية وبطلها سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه .

وكذلك فقد فتحت الشام في عهد أبي بكر الصديق على يد خالد في موقعة اليرموك ثم استكمل فتحها في عهد عمر تحت لواء أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله تعالى عنه .

وقد كانت موقعة نهاوند – أو فتح الفتوح – هي المدخل لبلاد فارس في عهد عمر بن الخطاب حيث كان بكل هذه الموقعة النعمان ابن المقرن ، ثم تداعت بعدها بلاد فارس وسقط عرش كسرى للأبد ، واستكملت الفتوحات بها في عهد عثمان تحت قيادة العديد من زعماء العرب كالأحنف من قيس وعبد الله بن عامر .

كذلك فتحت السند – في عهد متأخر نسبياً – في عهد الوليد ابن عبد الملك عام 91 هجرية حيث وجه الحجاج بن يوسف الثقفي محمد ابن القاسم الثقفي ففتحها ، ثم فتحت بقية أجزاء الهند ككابل وكشمير في عهد المنصور .

ومما يجدر ملاحظته مما سبق من استعراض سريع لحركة الفتوحات أن أكثر الأمصار الكبرى الهامة ذات الحضارة العريقة واليانات القديمة قد تم فتحها في السنوات العشرين الأولى للهجرة تقريباً ، وقد أدى ذلك – فيما نرى – إلى سرعة سريان عوامل التأثر والتأثير فيما بين المسلمين وبين غيرهم من أبناء الأمم المفتوحة ، وبين الفكر الإسلامي – الحضارة المبنية على أساسه – وبين الحضارات الأخرى التي بنيت على أساس فكر وثني ملحد (1) أو عقلي بشري (2) او كتابي محرّف (3) .

كان من نتيجة انتشار الفتوحات على كل تلك الرقعة من الأرض أن اختلط العرب المسلمون الفاتحون بغيرهم من الشعوب التي تعيش في تلك الأنحاء ، وبطبيعة الأمر – كما أسلفنا – كان لكل منها تراث فكري عقائدي خاص ، كما أن لها عاداتها وتقاليدها وطبائعها ومزاجها وعقليتها الخاصة بها ، والتي هي تراث أجيال عديدة انحدرت للأبناء من الأجداد فترسبت في نفوسها وفي هيئها الاجتماعية والعقلية على السواء . وكان من نتيجة هذا الأختلاط أن تأثر الفاتحون – بعض التأثر – بما عليه أهل الأمم المفتوحة ، كما تأثرت تلك الشعوب بما حمل لها الفاتحون من دين ولغة وأخلاق وعادات ومناحي عقلية هي كلها مندرجة

(1) التوبة - 36
(2) جامع الأصول 2 / 564 – اخرجه أبو داود والنسائي وهو صحيح
(3) كالفارسية والهندية
(4) كاليونانية
(5) كالرومانية النصرانية او اليهودية

في ثنايا هذا الدين الجديد ، وإن كان تأثر الأمم المفتوحة بما حمل لها الفاتحون أقوى كثيراً من تأثير تلك الأمم في العرب الفاتحين ، وذلك لأن من عادة المغلوب أن يتأثر بالغالب ويترسم خطاه في كل مناحي الحياة فما بالك والغالب قد جاء بدين جديد يدعو إلى الأتباع أول مايدعو والالتزام بما عليه المسلمون من خلق وعادات وهيئات اجتماعية ومناهج عقلية يتمثل في عبادات ومعاملات تشمل كل دقائق الحياة اليومية للمسلم .
ومما لاشك فيه أن كل أمة من الأمم اثرت بنوع من التأثير يناسب ماكانت عليه قبل الإسلام – كما سنرى في بحثنا التفصيلي فيما بعد – فكان تأثير الفرس مخالفاً للروم وكلاهما مختلف عن أثر الهنود أو الأثر اليهودي (1) .

عامل آخر من العوامل التي أثرت في الخط الإسلامي الواضح ، فأدت إلى ظهور تلك الفرق المنحرفة عن نهج العقيدة السلس المشرق ، وهو ترجمة الكتب التي تحمل ثقافة تلك الحضارات والثقافات التي غزاها المسلمون في مهدها .

وهذا العامل – فيما نرى – كان قليل الأثر في نشأة هذه الفرق لأن حركة الترجمة لم تقو وتشتد إلا في العصر العباسي – خاصة في عهد المأمون ثم من بعده – وإن كان هناك بعض الترجمات في العصر الأموي إلا أنها كانت كتبا طبية في غالبها مثلما حطى القفطي في أخبار الحكماء :
(ماسرجويه الطبيب البصري كان إسرائيلياً في زمن عمر بن عبد العزيز ، وربما قيل في اسمه ماسرجيس وكان عالماً بالطب ، تولى لعمر بن العزيز ترجمة أهرن القس في الطب وهو كناش فاضل من أفضل الكنانيش القديمة) (2) .

إلا أن مما لاشك فيه أن هذه الترجمات لكتب العقائد والالهيات اليونانية وغيرها من كتب الفلسفة قد كان لها أكبر الأثر في فكر الفرق بعد أن تطور من مرحلته الأولى والتي كانت غالباً ماتناقش أفكاراً أبسط بكثيرمن تلك المسائل التي تناولتها مؤخراً بعد انتشار تلك الكتب وبعد ازدياد حركة الاختلاط التي تحدثنا عنها قبل قليل – والتي سنتناولها بقليل من التفصيل عند دراستنا لتلك الفرق – وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كانت المسألة التي دار حولها وجود فرق المعتزلة في أول أمرها هي موقف مرتكب الكبيرة وهل هو مسلم أم كافر أم في منزلة بين المنزلتين ؟

وهو مأأدى بواصل ابن عطاء رأس المعتزلة إلى اعتزال حلقة الحسن البصري بعد خلافهما حول هذه النقطة وقد كان ذلك في بداية القرن الثاني الهجري وفي أواخر العهد الأموي (توفي ابن عطاء 131 هجرية) ، ولكن المذهب تطور واتسع وشمل الكثير من المسائل الفلسفية وبالطرق الفلسفية كما يتضح من دراسة أقوال لأبي هذيل العلاّف المتوفي 235 هجرية حيث بحث في طبيعة الجوهر الفرد والكمون وعلة الخلق وما إلى ذلك .

يقول الشهرستاني في الملل والنحل مثبتاً تطور أساليب الفرق وأفكارها : (ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام) (3) .

ويقول أحمد أمين في صدد حديثه عن الأدوار التي مرت بها الترجمة في العصر العباسي : (ومن أشهر المترجمين في هذا الدور – الأول – ابن المقفع وقد تقدمت ترجمته وجورجيس بن جبرائيل ويوحنا بن ماسويه وكلاهما كان طبيباً نصرانياً - وفي هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب التي ترجمت فنجد الأولين منهم كالنظام عرف أرسطو وعرف بعض كتبه في الفلسفة وتأثرت أبحاثهم بالمنطق وتكلموا في الطفرة والجوهر والعرض ...) (4) .

وقد نقلت كتب أرسطو وشروحها وكتب أفلاطون وبعض كتب جالينوس في الطب وغير ذلك . وقد كان كان الخطأ في الترجمة شائعاً وذلك من المترجمين الأصليين الذين نقلوا الكتب من اليونانية إلى السريانية ثم ألى العربية وهم غالباً من النصارى النّساطرة كما أن النقل في مثل هذه الأمور – كالالهيات – يؤدي الى أختلاف في الفهم عن مراد المؤلف الأصلي ، إلى جانب الاختلاف بين اللغات وبعضها في معاني المفردات والتراكيب .

يقول البيروني : (ولكن من ألالفاظ مايسمح في دين دون دين ويسمح به في لغة وتأباه أخرى ومنها لفظة (التأله) في دين الإسلام فإنا إذا أعتبرناها في لغة العرب وجدنا جميع الأسامي التي سمى بها الحق المحض متجهة على غيره بوجه ما سوى إسم (الله) فهو يختص به اختصاصاً) (5) .

---

(1) راجع ضحى الإسلام : أحمد أمين 5/1 للمزيد من التفاصيل
(2) عن فجر الإسلام / ص 163
(3) الملل والنحل للشهرستاني : هامش ابن حزم 1 / 32
(4) الضحى 1 / 264
(5) تحقيق ماللهند من مقولة / 27

بينما قد وصفت الذات الالهية في الترجمات العربية عن اليونانية والسريانية بأوصاف لاتليق به سبحانه ، فترجمة الالهيات عنهم أدى إلى زيادة التعقيد والتكلف .

وعامل آخر كان له بعض التأثير في امتداد الفرق وتغذية أفكارها وتنمية أنصارها ، ذلك هو مانشأ من رق وموالي نتيجة تلك الفتوحات الظافرة فقد انتشر الرقيق المجلوب من كافة أرجاء البلدان المتوحة وأصبح في كل البيوت لقبق يعمل لأصحابه فكان هناك عبيد وإماء : سودانيون وأتراك وأحباش وروم وأرمن وسنديون ، وكان لكل من من هولاء طبائع مختلفة ونواحي يبرز فيها عمن سواه تختلف باختلاف موطنه وطباعه كذلك فإن كثير من الموالي الذين دخلوا الإسلام من جديد وليسوا بالضرورة من الرقيق لم يكونوا على تلك الدرجة العالية من الفهم الإسلامي ، بل إن كثيراً منهم دخل الإسلام خوفاً وطمعاً وهو يحمل في نفسه بقايا دينه وتقاليده ، وعاش بها بين المسلمين ، فأخذوا عنه كما أخذ عنهم .

ونسرع إلى القول بأن هذا العامل كان ضعيف التأثير في نشأة الفرق ، ولكنه كان قوي التأثير في استمرارها وتطورها إبان العهد العباسي ، ولايمنع هذا من أن كثيراً من الموالي قد شرفهم الله بالإسلام فكانوا سادة من سادات العلم والفضل بل قد تفوق الكثير منهم على الكثير من العرب ، وشكلوا حركة إسلامية علمية عظمى ، وكانوا حفظة للدين وقادة للأمة ، ومن أعلامهم الحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وغيرهم كثير ممن ارتفعت أقدارهم بين الناس بعلمهم وورعهم سواء كانوا من الموالي أو من العرب .

وأخيراً لابد من القول بأن التشبه بالكفار هو أصل البلاء كما يقول أبن تيمية : (إن من أصل دروس الدين وظهور الكفر والمعاصي هوالتشبه بالكافرين ، كما أن أصل كل خير المحافظة على سنن الأنبياء وشرائعهم) (1) .

فنحن وإن كنا لانضخم من أثر العوامل الخارجية ، ولكن لانشك في أن لها أثراً في ضعف المسلمين وتفرقهم ، وتحذيرالرسول صلى الله عليه وسلم من التشبه بالأعاجم أو باليهود والنصارى أكبر دليل على ذلك ، وهذه هي العوامل الخارجية نوضح أثرها بشكل إجمالي لنبين موضع الداء ، وأما دراستها بالتفصيل فله موضع آخر .

أولا - أثر الفرس :

كان للفرس اثر جد خطير في الجو الديني الإسلامي سواء في فارس أو البلاد الإسلامية الأخرى التي انتقل إليها الفرس بعد الفتح ، وذلك أن الفرس كانوا قبل الإسلام أهل حضارة عريقة وأصحاب دين قديم (2) ، فقد ظهرت الديانة الزرادشتية التي تقول بإلهية اثنين : إله النور والخير وإله الظلمة والشر ، كما ظهرت الديانة المانوية ، وقد تأثرت بمذهب النصارى في الرهبنة والانقطاع عن الدنيا ، ثم عرفوا المزدكية وهي ديانة فاسدة تدعوا الى الاباحية في النساء والشيوعية في الأموال ، وكذلك عرف عن الفرس من قبل ومن بعد عبادة النار واتخاذها رمزاً للخير، فجعلوا لها المعابد وخصّوها بالعبادة والاجلال .

كما كان للفرس نظرة خاصة إلى ملوكهم – وأسرهم المالكة – فهم يجعلونهم في مصاف الآلهة المعبودة فلهم حق التأله على الناس وهو حق يتنقل في هذه الأسر بالوراثة وقد ظهرت هذه النزعة من الفرس اتجاه ملوكهم الأكاسرة والساسانين .

وبعد أن تم الفتح الاسلامي لبلاد فارس ، ودخل الفرس في دين الله أفواجاً ، لم يكن من السهل أن يعرف كل هولاء الداخلين الإسلام كما أراده الله عز وجل فالاعداد المسلمة غفيرة والعادات والأفكار والأديان القديمة متأصلة في النفوس فكان أن ترعرعت نبتة (الرفض) البغيضة في تلك البلاد ، واستمدت افكارها الرئيسية بشأن الامام المعصوم وآل بيته المقدسين مما رسخ في الاذهان من قديم .

يقول ضياء الدين الريس : { وبعد انتهاء عهد الخلفاء الأول وبعد معاوية ظهر جيل جديد من أمة الفرس ، جيل لم يعرف دولة الفرس القديمة ولم يشهد الفتح ، وقد نشطت حركة تحريره ، فأقبلوا جماعات على اعتناق الإسلام واخذوا يفدون إلى المدن الكبرى ، فكانت الفكرة الشيعية اكثر الأفكار ملاءمة لعقولهم ، فالفرسي يفهم جيداً الحق الالهي للملوك ، والفارسي لم يكن

(1) اقتضاء الصراط المستقيم / 116

(2) انظر الملل والنحل للشهرستاني

يستطيع أن يتصور أن يوجد خليفة بالانتخاب ، وإنما المبدأ الوحيد الذي يمكن أن يفهمه هو مبدأ الوراثة وليس من المبالغة إذن في شيء أن يقال أن البيت النبوي وقد مثله (آل علي) قد حل في قلوب هؤلاء الفرس واعتبارهم محل البيت (آل ساسان)}(1) .

وقد كانت تظهر على عدة شخصيات من الشخصيات الفارسية التي اعتنقت الإسلام وكان لها شهرة فيه – كانت تظهر فيها نزعة الحنين إلى الفارسية ودينها ، فتظهرها حيناً وتبطنها حيناً آخر كالبرامكة وآل سهل ، فهذا الفضل بن سهل – المسمى بذي الرياستين – يبعث بعض الأحداث من أهله للتعلم في خراسان حيث يتشربون الأثر الفارسي (وقد عرف عن البرامكة إيواءهم لمن يرمى بالزندقة وكان هشام نت الحكم الرافضي منقطعاً لإلى يحيى بن خالد البرمكي ومان القيم بمجالس كلامه ونظره ، وقد ألف كتباً كثيرة) (1) .

يقول أحمد أمين : (وسبب ثان هو أن بعض الفرس رأوا أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق مطالبهم فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الأموية الى يد أخرى هي يد العباسيين ، ومطمح نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها ، في سلطتها ولغتها ودينها ، ورأوا أن ذلك لايتحقق والإسلام في سلطانه فأخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهراً إن أمكن وخفية إذا لم يمكن) (2) .

والحق أن الأثر الفارسي قد ظهر كأشد مايكون في بدعة (الرفض) او التشيع كما يود الرافضة أن يطلقوا على أنفسهم ترغيباً في بدعتهم وإخفاءاً لعوارهم ، وكما يطلق عليها بعض من انخدع بأقوال الرافضة من أهل السنة (الطيبين) ، فكانت بلاد فارس هي المحضن الطبيعي لتلك البدعة الشنعاء وفيها أثمرت ومنها انطلقت الطموحات الرافضة بايران في عصرنا الحالي وسيكون المجال أرحب للتفصيل عن ذلك في البحث المخصص للروافض بإذن الله تعالى عند دراسة الفرق الكبرى .

ثانياً - أثر اليونان :

كان لاتصال المسلمين بالفكر اليوناني أثر عميق في عدة نواح من جوانب الفكر الإسلامي الذي خرج عن أصالته وبساطته في تلك النواحي التي اتصل فيها بفكر اليونان.وقد كان أهم جانب استأثر بالأثراليوناني هو جانب العقيدة ومايتعلق بها من مباحث .

فاليونان قد عُرفوا من قديم الزمان بالبحث الفلسفي ، وقد كانت لديهم عدة مدارس فلسفية تقيم كل مدرسة منها بناءاً عاماً يدرس من خلاله أصل الوجود والانسان والعلاقة بين الخالق -في حالة أن تكون المدرسة تعترف بوجود خالق كالمدرسة الأرسطية - والمخلوق وماهية الخالق وطريقة الخلق وطبيعة الانسان ... إلى غير ذلك عن طريق العقل ... والعقل وحده وقد وضعت كل مدرسة من تلك المدارس نظرية تعالج فيها كل تلك الأمور من وجهة نظر مؤسسها ومن عمل تمم البناء من بعده ، وكانت هذه المدارس بطبيعة الحال تتقارب فيما بينها بشأن ماتبحثه من قضايا وذلك شأن الباحث المعتمد على العقل وحده في خضم تلك المباحث التي لاسلامة في النظر فيها إلا بمنار الوحي واستلهام الشرع .

وليس مجالنا في هذه العجالة أن نستعرض تلك المدارس الفلسفية التي أنتجها العقل اليوناني في محاولته للوصول إلى الحق بمعرض عن الوحي الالهي ولكن قد يكون لمدرسة أرسطو بالذات متسع بالشرح والتفصيل عند التعرض لدراسة الاعتزال في موضعه الخاص من هذه المباحث عند استعراض الفكر الاعتزالي ودور المعتزلة كفرقة مبتدعة ذلك أن تلك المدرسة كان لها أكبر الأثر في ذلك الفكر الابتداعي سواء في جانبها الفلسفي أو المنطقي ودورها في إنشاء ماسمي بعلم (الكلام) أو (التوحيد) كما أطلق عليه مؤيدوه باعتبار أنه الدفاع عن التوحيد الإسلامي في مواجهة الفكر اليوناني الملحد وبطريقة ذلك الفكر نفسه !

وقد كان من أول مانقل إلى العربية من نتاج تلك العقلية هو ماترجمه ابن المقفع من كتب المنطق الأرسطي ، وإن كان الاتصال في أول الأمر قاصداً على العلوم الطبية كما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز حين ترجم له ماسرجويه الطبيب - وكان اسرائيلياً - كتاب اهرن القس في الطب .

ثم أصبح شائعاً في العهد العباسي نقل العلوم العقلية اليونانية من فلسفة ومنطق بشكل منظم ومكثف في عصر المأمون العباسي وبعده .

(1) ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية / 71

(2) ضحى الإسلام / 194 بتصرف

ورغم أن الأثر اليوناني قد ظهر كأشد مايكون في فكر من يسمون بفلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سينا وفي فكر المعتزلة إلا أنه قد أثر في مناهج الفكر بشكل عام عند بقية الفرق ، بل وعند بعض علماء أهل السنة الذين دافعوا عن علم (الكلام) الذي استقوه من المنهج المنطقي اليوناني وقد تجلى ذلك في كتابات أئمة (الأشاعرة) كما سيتضح بعد .

ثالثاً ـ أثر الهند :

كان فتح السند على يد محمد بن القاسم الثقفي أيام الوليد بن عبد الملك عام 91 هجرية ثم توسع الفتح في أيام المنصور العباسي عام 142 هجرية ففتحت كابل وكشمير ، وكان الاتصال بين العقلية الهندية بثقافتها وديانتها وبين المسلمين الفاتحين عن طريق التجارة أو الاقامة للفاتحين في البلاد الجديدة أو بنقل الثقافة وترجمتها كما حدث بالنسبة للفارسية أو اليونانية .

وقد كان من أهم ماأثر به فكر الهنود في الفرق المبتدعة في الإسلام هي فكرة (التناسخ) (1) فقد نشأت عدة فرق تقول بهذه الفكرة منها السبأية من الروافض .

كذلك تأثرت الصوفية بالهندوكية ، يقول البيروني في كتابه تحقيق ماللهند من مقولة : { وإلى طريق (باتنجل) ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق فقالوا : مادمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بافنائها عنك فلا يبقى مشير ولاإشارة) (2) ويقول نقلاً عن كتاب باتنجل : (ومن اشتغل بنفسه عما سواها لم يضيع لها نفساً مجذوباً ولامرسلاً ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية فمنح الاقتدار على :
- تلطيف البدن حتى يخفى على الأعين .
- التمكن من الارادات .
- التمكن من انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة .
ويعقب البيروني : وإلى مثل هذا لأشارت الصوفية } (2) .

ومن الفرق التي تأثرت بالتناسخ (النصيرية) و (الدروز) الذين يعتقدون أن مرتكبي الآثام يعودون إلى الدنيا يهوداً أو نصارى أو مسلمين سنيين !! (3) .

رابعاً ـ أثر اليهودية :

كان الأثر اليهودي قد ساعد في إخراج القالب الحالي للديانة اليهودية إلى جانب ماكان من تحريف وتبديل منذ عصر السبي في عهد نبوخذ نصر إذ ظلت اليهودية تعيش قروناً تحت ظل الحكم اليوناني الروماني ، كما كانت منتشرة في الأسكندرية وعلى شواطئ البحر المتوسط حيث الثقافة اليونانية ، كما كان من أحبار اليهود من تعلم الفلسعة اليونانية وتأدب بآدابها ، فتسربت تلك الثقافة الى اليهودبة ، وحين خالط اليهود المسلمين كانوا يحملون كل هذا التراث الخليط من الديانة المحرفة والفلسفة اليونانية المشوّهة .
والحق أن الأفكار اليهودية بذاتها لم تكن ذات أثر كبير في نشأة فرق مبتدعة في الإسلام بقدر ماكان لشخصيات يهودية الأصل دخلت الإسلام لمحاولة تبديل عقائده وتخريبه من الداخل ونضرب مثالين لهذا الأثر الشخصي اليهودي :

1- عبد الله بن سبأ : ذلك اليهودي الذي ادعى الإسلام في عهد عثمان ، وقد ولد بصنعاء من أمة سوداء ، وقد تسبب في إثارة الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه عندما توجه ال مصر وتكلم (بالرجعة) فيها – أي رجعة محمد صلى الله عليه وسلم كما في رجعة المسيح عليه السلام آخر الزمان – ثم بوصاية علي رضي الله عنه وآلب الطوائف على عثمان ، وقد أخذت عنه غلاة الشيعة القائلين بألوهية علي وهم المسمّون بالسبأية نسبة إلى هذا اللعين (4) .

2- وكان اصل القول بخلق القرآن وبالجبرية (لبيد بن الأعصم) الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك انه كان يقول

---

(1) وفكرة التناسخ التي ذكرناها هي أن الله سبحانه يبعث المسيء العاصي في جسد كائن أحط منه مستوى كالكلب أو الحمار أو الخنزير حسب معاصيه ليتعذب في ذلك الجسد ، أما المطيع فإنه يبعث في جسد كائن أرقى أو يظل روحاً هائماً أو يفنى فناءاً تاماً ! راجع الفصل لابن حزم ج 1 / ص 90 .
(2) تاريخ التصوف / عبد الرحمن البدوي / 36 ، 37 (3) الضحى / احمد أمين 1 / 241 (4) الطبري وابن الأثير

بخلق التوراة – وكان يهودياً – فأخذ عنه ذلك ختنه طالوت فأخذه عنه أبان بن سمعان ثم عنه الجعد بن درهم فالجهم بن صفوان ثم بشر المريسي الذي كان من أصل يهودي كذلك .

أما عن انتقال الاسرائيليات إلى كتب التفسير ، فذلك أمر ملحوظ في العديد من التفاسيربالفعل ، مثلما رووه في تفسير سورة يوسف عليه السلام ، ولكن ماكان لهذه التفسيرات من أثر فعلي في نشأة الفرق إلا من حيث نقلها لما سبق من آراء استغلها المغرضون في رسم مذاهبهم وعقائدهم كالرافضة الذين كانوا أكثر من أخذ عن اليهود في وضع أسس دينهم وعقائدهم كما نقلوا عقيدة البداء المنقولة عن اليهود – أي جواز أن يبدأ الله عز وجل أمراً مستأنفاً فيرجع عن رأيه الأول إلى الثاني تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وكذلك قولهم بالرجعة (1) .

خامساً - أثر النصرانية :

كان التحريف والتبديل قد لعب دوره في النصرانية – كاليهودية – بفعل بولس اليهودي الذي أدخل عقيدة التثليث على دين المسيح عليه السلام ليوفق بينه وبين عقائد الوثنية المنتشرة في بلاد الروم أنذاك ويكون للدين المزيج الغلبة في نهاية الأمر .

وقد عاشت النصرانية – في ثوبها الجديد الزائف – على حدود العالم الإسلامي في عدة أنحاء منه ، فكان في نجران باليمن نصارى يعاقبة على مذهب الرومان ، وكذلك في غسّان كما كان بالحيرة نصارى نساطرة ، إلى جانب الصوامع المنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية حيث كان العرب يقابلون الرهبان في صوامعهم في رحلاتهم التجارية ، وقد كان بعض العرب في الجاهلية من النصارى كورقة بن نوفل وقسّ بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت الشاعر .

وقد اثرت النصرانية في نشأت الفرق في الإسلام بطريقتين ، العامل الفردي أو الشخصي ثم المفاهيم العامة والعقائد .

فمن المفاهيم النصرانية التي تسربت إلى عقول طوائف من المسلمين وأدت بهم إلى (الصوفية) هي نظرة النصرانية إلى الدنيا واحتقارهم الكامل لها – في ظاهر الأمر – واعتبار أن النجاة في الرهبانية وهي الأعراض عن العمل والزواج والسعي في الأرض للتوفر على عبادة الله وحده – بزعمهم – مما أدى إلى التأثير على الزهاد والعباد المسلمين – الذين كانوا كنواة للصوفية – فانحرف بهم إلى الرهبانية التي منع منها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ققله (سياحة أمتي الجهاد) (2) وقوله صلى الله عليه وسلم : (إن ترهب أمتي الجلوس في المساجد لانتظار الصلاة) (2) وقد قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ (3) .

وقد كان للمفاهيم النصرانية عن (اللاهوت) و (الناسوت) والاتحاد بينهما أثر في تنمية وتشكيل مبدأ الحلول والاتحاد الذي قال به متأخروا الصوفية كالحلاج وابن سبعين وابن عربي كذلك مفهوم (الولاية) بالمعنى الصوفي فإنها مذهب نصراني غنوسطي (4) .

وقد أدت المناقشات التي دارت بين المسلمين والنصارى إلى التأثير في مناهج التفكير لدى الفرق المبتدعة وخاصة رؤوسهم .

جاء في كتاب الغرب والروم لغازيليق : (وكانت عاصمة الأمويين دمشق مسرحاً قامت عليه كثير من المناقشات الدينية تلك التي سجلها يوحنا الدمشقي وتيودور أبوقرة وهي معروفة ، وقد رأى البعض أن المذاهب الأولى الخارجة على السنة في الإسلام نشأت من هذه المناقشات الدينية مثل الارجاء والقدرية) (5) .

ويقول الذهبي في ترجمة الفارابي : (ولقى يونس بن متى صاحب المنطق فأخذ عنه وسار إلى حّران فلزم فيها يوحنا بن جيلان النصراني وسار الى مصر وسكن دمشق) (6) .

---

(1) أما ماذكره صاحب ضحى الإسلام في 1/ 335 من أن تعرض المسلمين في مباحثهم للنسخ في القرآن كان من تأثير اليهود فهو قول مردود لأن ذلك مبحث خاص بأصول الفقه قال به الشافعي الذي لم يتأثر بيهود أو غيرهم ، كما أن له مبررات تكفي للبحث فيه كالآيات الدالة على ذلك عند دراستها كذلك الأحاديث التي ثبت نسخها ، فلاحاجة لادعاء الأثر اليهودي فيها . يراجع كذلك الحضارة الإسلامية آدم قنبر20/2 ، 29/2، 46/2 .

(2) خرجه ابن المبارك عن عثمان بن مظعون : الاعتصام 325/1.

(3) المائدة – 87

(4) الحضارة الإسلامية / متز/ 2/ 46 .

(5) ص – 83 .

(6) أعلام النبلاء 15 / 417 .

كما روى أبو نعيم في (الحلية) : (أن رجلاً قال لعبد الله من الفرج العابد : ياأبا محمد هؤلاء الرهبان يتكلمون بالحكمة وهم أهل كفر وضلال فمم ذلك ؟ قال : ميراث الجوع ! – متعت بك – ميراث الجوع – متعت بك !) (1) .

كما نقل الذهبي : (قال أحمد بن أبي الحواري : وقلت لراهب في دير حرملت مايحبسك قال : حبست نفسي عن الشهوات قلت : نجد في كتبنا أن بدن ابن آدم خلق من الأرض وروحه خلق من ملكوت السماء فإذا جاع البدن فأطعمه وأراحه أخلد إلى الموضع الذي منه خلق فأحب الدنيا . فحدثت بهذا أبا سليمان الداراني فقال : قاتلهم الله إنهم يصفون) (2) .

وكان مالك بن دينار من أوائل الصوفية الذين اطلعوا على كتب النصارى أو حاوروا كثيراً من الرهبان ، وينقل عنهم في كلامه وخاصة موضوع تعذيب الجسد ، والسياحة في البراري وكان يغشى أديرة النصارى ويديم الاطلاع على الكتاب المقدس (3) .

كما أن المطالع لكتب التاريخ تأخذه الدهشة من نفوذ النصارى في قصور بعض الخلفاء حيث كانوا أطباء لهم في غالب الأحيان كابن بختشوغ طبيب المنصور وجبريل ابنه طبيب المأمون .

والحق أن هدى الإسلام في ترك الاستعانة بالمشركين لهو الحصن الحصين الذي يحمي الدول والمجتمعات الإسلامية من تلوث بيئتها بهذه السموم الفكرية التي رأينا طرفاً من أثرها فيما سبق .

وبعد :

فقد أشرنا في المقدمة لإلى هدفنا من هذا البحث – وما يتبعه من الكلام عن الفرق .

- فإنه حتى يظهر الحق فلابد أن يستبين الباطل (والضّد يعرف بالضّد) كما قيل ، فإذا جاء الحق زهق الباطل .

وطالما أن الباطل متخف متوار وراء شعارات وأسماء فلن يكون الجق ناصعاً- إلا لمن عصم الله – وهو هدف أسمى .

- ثم إن إظهار عوار المبطلين وجهل الجاهلين وألاعيب المزيفين لهو ظفر في حد ذاته لدين الله تعالى وقد قال عز وجل وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ (4) .

فاستبانة سبيل المجرمين هدف بذاته مطلوب بنص كتاب الله تعالى – وهو هدف أسمى .

- ثم طلب النجاة لهولأء الشباب الذين خدعتهم الكلمات تارة ، وانخدعوا بما ظنوه (علماً) تارة أخرى سواء تلقفوه من فم كل مبدع أو جاهل ، أو استقوه بأنفسهم من الكتب دون أن يتسلحوا بشرائط الفهم الصحيح أو أن يلبسوا منظار الاتساع في الرؤية الشمولية للإسلام وللواقع على حد سواء ، ولا ننكر أن من هؤلاء الشباب – وهم كثر – من هو مخلص متفان متعطش للفهم الصحيح والنظر الصائب والتوجيه المثمر – وهو هدف أسمى .

- ثم أن يكثر أهل السنة ، ويظهروا على أهل البدع والأهواء وأن يكون (الإتباع) هو طريق المسلمين لا (الابتداع) ، وأن يعرف الناس فضل أهل السنة على من سواهم ممن انتسب إلى الإسلام ، فبهذا وردت الآثار المستفيضة كما جاء عن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ (5) فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة (6) .

فان يكثر المنتسبون لهذا الخط المبارك ، خط السلف ، وأهل السنة والجماعة لهو هدف اسمى .

(1) تاريخ التصوف – بدوي 35 (2) سير أعلام النبلاء 12/ 89 (3) تاريخ التصوف – بدوي 207 (4) الانعام - 55
(5) آل عمران - 106 (6) الأثر – 74 شرح أصول اعتقا أهل السنة والجماعة للحافظ اللالكائي – تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ص 1 / 72.

- وان يكبت الله تعالى أهل البدع والضلالة ، ويحبسهم في قماقمهم ، ويسود وجوههم في الدنيا قبل الآخرة ، ويظهر تلونهم في دين الله تعالى ، وجهلهم بكلامه تعالى وانحرافهم عن سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لهو هدف أسمى .

وأننا لندعو الله تعالى مخلصين أن يجعل الحق هو هدفنا وأن ينزع الهوى من نفوسنا لنرى الحق حقاً والبطل باطلاً .

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (1) .

اللهم رب جبرائيل وميكال وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

(1) آل عمران – 8 .

ثبت المصادر

الإمام أحمد :	المسند
سيد قطب :	في ظلال القرآن
	خصائص التصور الإسلامي
ابن تيمية :	مجموع الفتاوى
	اقتضاء الصراط المستقيم
	الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
	درء تعارض العقل والنقل
ابن خلدون :	المقدمة
ابن كثير :	تفسير القرآن العظيم
	البداية والنهاية
ابن القيم :	إغاثة اللهفان
	أعلام الموقعين
الشاطبي :	الموافقات
	الاعتصام
الذهبي :	المنتقى من منهاج الاعتدال
	سير أعلام النبلاء
ابن حزم :	الفصل في الملل والنحل
الشهرستاني :	الملل والنحل
الطبري :	تاريخ الرسل والملوك
اللالكائي :	السنة – تحقبق أحمد سعد حمدان
القاسمي :	محاسن التأويل
الآمدي :	الاحكام في أصول الأحكام
الغزالي :	المستصفى في أصول الفقه
الجويني :	غياث الأمم في التياث الظلم
ابن نجيم :	الأشباه والنظائر
السيوطي :	الأشباه والنظائر
ولي الدين الدهلوي :	الفوز الكبير
محمد عبد الله دراز :	دستور الأخلاق
عبد السلام هارون :	تهذيب السيرة
أحمد أمين :	فجر الإسلام
	ضحى الإسلام
	ظهرالإسلام
محمد أبو زهرة :	أصول الفقه
جودت سعيد :	حتى يغيروا ما بأنفسهم
عبد الرحمن بدوي :	تاريخ التصوف
آدم متز :	الحضارة الإسلامية

فهرست المواضيع

الموضوع **الصفحة**

1- تمهيد 3-14

2- الفصل الأول : العوامل الداخلية 15-16

المبحث الأول :اتباع الهوى 17-31

المبحث الثاني : التعصب 32-37

المبحث الثالث : الجهل 38-41

3- الفصل الثاني : العوامل الخارجية .....

4- المصادر .....